جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
إيتاى البارود

موازين القوى بين المسلمين والروم على ضوء الاحتكاكات الحربية فى العهد النبوى

بقلم الدكتور
أحمد محمد الدسوقى المنوفى
أستاذ التاريخ الإسلامى والحضارة المساعد
بقسم التاريخ والحضارة

١٤١٩هـ/١٩٩٩م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

الحمد لله ، مالك الملك، يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويرفع أقواما، ويخفض آخرين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته، الذين سموا بالإسلام، ومكن الله لهم فى الأرض، وجعلهم الوارثين.

وبعـــد

فموضوع هذا البحث «موازين القوى بين المسلمين والروم، على ضوء الاحتكاكات الحربية فى العهد النبوى» وترجع أهميته إلى أنه يوضح الجانب الراجح فى موازين القوى فى العهد النبوى، على أساس من الوقائع التاريخية، ويعيد النظر فى أسباب ونتائج الاحتكاكات العسكرية بين المسلمين والروم، مدعما بما أثبتته المصادر، ويساهم- بجهد متواضع- فى تجلية هذه الفترة المثالية من تاريخ المسلمين.

كما ترجع أهمية هذا البحث إلى أن موازين القوى بين المسلمين والروم فى العهد النبوى، هى البداية لموازين القوى بينهما، والتى استمرت مايقرب من تسعة قرون، ومعرفة هذه البداية تعيننا على معرفة الفترات اللاحقة المبنية عليها.

وقد قدمت بين يدى البحث بتمهيد، تناول موازين القوى- بصفة عامة- والصراع الدائم بين الشرق والغرب، ثم بيان العلاقات بين المسلمين والروم قبل غزوة مؤتة، تلك الغزوة التى كانت اللقاء الحربى المباشر الأول بينهما.

وتناول البحث أمرين :

الأول: موقف هرقل من الإسلام، وأثر ذلك على الاحتكاكات الحربية بين المسلمين والروم، وذكر رسالتى النبى- صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل، وأدلة ميله إلي الإسلام، ودواعى هذا الميل، ووقفة مع المصادر غير الإسلامية فى هذه

القضية، وأثر موقف هرقل من الإسلام على الاحتكاكات الحربية مع المسلمين.

الثانى: الاحتكاكات الحربية بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، وتناول غزوة مؤتة، ثم غزوة تبوك، ثم ما بعد تبوك،وذكر البحث مايؤكد تفوق المسلمين فى موازين القوى على الروم فى هذه الفترة.

وأخيراً مصادر البحث ومراجعه،وقد اعتمد البحث على مصادر أصيلة فى بابها فيما يتعلق بالجانب الإسلامى، وكذلك فيما يتعلق بالجانب الرومى، عن طريق الكتب التى ترجمت لهذه المصادر.

ولقد كان-بلاشك- فى موازين القوى بين المسلمين والروم فى العهد النبوى، حكمة بالغة، فالدولة الإسلامية على حداثتها- تفوقت فى موازين القوى علي الامبراطورية الرومية - على عراقتها- وكان وراء هذا التفوق الإسلامي:

١- تمسك صحابه النبى صلى الله عليه وسلم بالهدى الإلهى، والتوجيه النبوى، والتسلح بالإيمان وإعداد ما استطاعوا من قوه لعدوهم.

٢- جزاء الله لهم، حيث بدلهم من بعد ضعف قوة، ومن بعد ذل عزة ورفعة، وصرف المقادير لخيرهم، فانشغل الروم بقتال الفرس في معارك طاحنة، قبل أن يلتقوا بهم، وخرجت الدولة الرومية من هذه المعارك منهكة القوى، لتنازل الدولة الإسلامية الفتية مباشرة، فتكون الدائرة عليها، وترجح موازين دولة الإسلام.

أسأل الله -تعالى- للأمة حسن الاعتبار، كما أسأله- جل وعلا- التوفيق والصواب والسداد والرشاد، عليه توكلت وإليه أنيب، وهو حسبى ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين.

التمهيـــد:

أ) موازين القوى والصراع بين الشرق والغرب :

١- نظرة تاريخية :

عـودنا التـاريخ- منذ أقـدم العـصـور- على وجـود قـوتين عظمـيين فى العالم، تتصارعان السيادة والنفوذ وكانت الحرب بين الفرس واليونان- قديما- ثم توسع الإسكندر الأكبر فى الشرق، ثم الامبراطورية الرومانية من بعده، توضح بجلاء أن إحدى القوتين، تنتمى إلى الشرق، وأن الأخرى تنتمى إلى الغرب.

وفى العـصـور الوسطي، تمثل الصـراع في الحـروب بين الامـبـراطورية الفارسية، والامبراطورية البيزنطية، وبعد انتشار الإسلام وتوسعه، وسقوط الامـبـراطورية الفـارسـيـة، حلت الدولة الإسـلامـيـة مـحلهـا فى الصـراع مع الامبراطورية البيزنطية، والأولى تمثل الشرق، والأخرى تمثل الغرب.

واستمرت حلقات الصراع بين القوتين العظميين، وبين الشرق والغرب- فى صور متعددة- حتى العصر الحاضر، والصراع بين القوتين العظميين- على مر التاريخ- صراع سياسى وعسكرى فى جانب منه، وحضارى فى الجانب الآخر، تحاول كل منهما أن تفرض نفسها على الأخرى «فإن تعادلت القوتان من الناحية السياسية والعسكرية والحضارية- كما يقول الدكتور جوزيف نسيم يوسف- كان هذا يعنى اعتدال ميزان القوى فى الصراع بينهما بحيث لايمكن لأى منهما أن تحرز تفوقا أو نصرا حاسما على الأخرى، بل تقفان وجها لوجه فى فترة تربص واستطلاع وجس نبض، وهذا ما نسميه باعتدال كفتى الميزان فى الصراع بينهما، ويستمر الوضع على هذا الحال إلى أن يتغير توازن القوى، الذى يرتبط ارتباطاً وثيقا بتغير الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها لدى كل منهما، وإذا رجحت إحدى القوتين على الأخرى، بادرت - عادة- باتخاذ سياسة الهجوم، وتوجيه الضربة الأولى، بينما تلتزم الأخرى بسياسة الدفاع عن نفسها وكيانها بوجه عام، وعادة مايحرز الأقوى النصر على

الأضعف، والعكس صحيح إذا ما تفوقت الثانية على الأولى، تبادر باتخاذ سياسة الهجوم، ويميل مركز الثقل إلى جانبها، بينما تلتزم الأخرى بسياسة الدفاع[١]».

٢- الصراع بين الفرس والروم :

كان الصراع على أشده- قبل ظهور الإسلام- بين دوله الروم ودولة الفرس- وكانت دولة الروم (أو الامبراطورية البيزنطية) تدين بالمسيحية، بينما كانت الدولة الفارسيه، تدين (بالزرادشتيه)[٢]، وقد أخذ الصراع بين الدولتين جوانب كثيرة، ومن هذه الجوانب، الجانب الاقتصادى، والجانب العسكرى، وقد أولت الدولة البيزنطية، الناحية الاقتصادية اهتماما خاصا، وحرصت فى صراعها مع الفرس، على تحطيم اقتصادهم، وكان أول ما صنعته، محاولة إبعاد التجارة عن بلاد فارس، بتوجيهها نحو الشمال، وفتح طرق شمالية تجارية لبضائع الصين، وفى مقدمتها الحرير، كما بذلت محاولات أخرى- فى القرن السادس الميلادى- استهدفت إبعاد فارس عن الاتجاه جنوبا، عن طريق البحر الأحمر، للوصول إلى سيلان، وجزر الهند الشرقيه، والصين، وشجعت الحبشة المسيحية الواقعة جنوب البحر الأحمر، على القيام بدور الوسيط، واستخدام سفنها فى المحيط الهندى؛ لتنمية التجارة مابين سيلان والبحر الأحمر[٣].

---

(١) يوسف: جوزيف نسيم. الإسلام والمسيحية الطبعة الأولى.دار الفكر الجامعى. الاسكندرية ١٩٨٦م ص٤٥، ٤٦.

(٢) الزرادشتيه: ديانه فلسفيه قديمة، تنسب إلى الفيلسوف (زرادشت) وتقول هذه الديانة بوجودة إلهين، أحدهما للخير، والآخر للشر.د.أحمد أمين. فجر الإسلام. الطبعة العاشرة. مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٥م ص٩٩.

(٣) لويس: أرشيبالد. القوى البحرى والتجارية فى حوض البحر المتوسط. ترجمة أحمد محمد عيسى. مكتبة النهضة المصرية بدون تاريخ ص٥١، ٥٢.

أما الجانب العسكرى، فتمثل فى قيام الفرس، بقيادة ملكهم (كسرى الثالث)- الذى شهدت فارس في عهدة نهضة دينية وعسكرية- بالتوغل فى الممتلكات البيزنطية، والاستيلاء على بيت المقدس، وأخذ صليب الصلبوت- الذى يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه- وكذلك الاستيلاء على الشام ومصر [١]، وقد حدث هذا بعد ظهور الإسلام، وكانت عاطفة المسلمين مع الروم؛ باعتبارهم أهل كتاب سماوى مثلهم، ومن ثم حزنوا لهزيمتهم، وقد سجل القرآن الكريم ذلك، وتنبأ للروم بالغلبة والفوز على أعدائهم الفرس، بعد سنين معدودة، وجاءت الآيات الكريمه :(ألم. غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) [٢].

وتبوأ عرش الامبراطورية البيزنطيه، (هرقل) ٦١٠م-٦٤١م، وتمكن هذا الإمبراطور البارع، من أن يستعيد للإمبراطورية ماضاع منها، وأن يستعيد بيت المقدس،وصليب الصلبوت بعد حروب مع الدوله الفارسية، انتهت سنة ٦٢٨م [٣].

وإذا كانت الحروب بين الفرس والروم، وقدانتهت بانتصار رائع للروم، فإن هذا الانتصار كلفهم تكاليف باهظة، ونالت هذه الحروب من قوة الإمبراطورية العسكرية، وتوازنها الاقتصادى [٤].

---

(١) يوسف: د. جوزيف. الإسلام والمسيحية مرجع سبق ص ٤٧، تاريخ الدوله البيزنطية، دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٨م من ص١٠١ إلى ص١٠٣.

(٢) سورة الروم: الآيات الأربع الأولى منها.

(٣) يوسف: د. جوزيف الاسلام والمسيحية، ص٤٦، ص٤٧، لويس: القوى البحريه والتجارية ص٧٦، ٧٧.

(٤) يوسف: د. جوزيف: تاريخ الدولة البيزنطية ص١٠٩.

٣- الصراع بين المسلمين والروم :

أتاح الصراع بين الدولتين الفارسية والبيزنطيه، للدولة الاسلامية الناشئة فى بداية القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى)، أن تتمكن منهما- وقد نالت منهما الحروب الطاحنه بينهما- وتستولى على أراضى الدولة الفارسية، وتسقطها نهائيا، بعد الاستيلاء على عاصمتها المدائن بسنين معدودة[١]، وتستقطع من الدولة البيزنطية، أهم أقاليمها فى الشرق (الشام ومصر وبلاد المغرب)، وأصبحت الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية، القوتين العظميين المتصارعتين فى المرحلة الجديدة[٢]، وكانت موازين القوى تميل إلى الجبهة الإسلامية فى معظم الأوقات، وبذلت الدولة الاسلامية، قصارى جهدها فى سبيل إسقاط الدولة البيزنطية، ورأت أن السبيل إلى ذلك هو إسقاط عاصمتها (القسطنطينية)، كما فعلت مع الدولة الفارسية، ولكن محاولات إسقاط القسطنطينية فى القرن الأول الهجرى، لم يكتب لها النجاح[٣].

هذا وقد استمر الصراع الإسلامى البيزنطى، من القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) إلى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى)، عندما

---

(١) ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد. الكامل فى التاريخ. دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م جـ٢ من ص ٣٥٤-٣٥٩.

(٢) كانت هناك قوة ثالثة لاقيمة لها ولا وزن، هى دول غرب أوربا، وهى دولة جديدة ظهرت بعد الغزو الجرمانى لغرب أوربا، وإسقاط الامبراطورية الرومانية الغربية، وكونتها القبائل الجرمانية البسيطة المتخلفة، وعرفت عصور حكم هذه الدول فى تاريخ أوربا، بالعصور المظلمة، أو العصور الوسطى المبكرة، انظر يوسف: د. جوزيف الاسلام والمسيحية ص٤٨.

(٣) ابن الأثير : جـ٣ فى أماكن متفرقة.

تمكن العثمانيون من فتح القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م، القضاء بذلك على الإمبراطورية البيزنطية(١).

ب) العلاقات بين المسلمين والروم قبل غزوة مؤتة :

من اللازم قبل الحديث عن موازين القوى بين المسلمين والروم، على ضوء الاحتكاكات الحربية بينهما، والتي كانت غزوة مؤتة فاتحتها، أن نتعرف على العلاقات بين المسلمين والروم قبل هذه الغزوة.

١) موقف الروم من قيام الدولة الاسلامية :

كان من عناية الله- تعالى- ورعايته، أن البدايات الأولى للدولة الاسلامي، تزامنت مع انشغال الدولتين الكبيرتين، دولتى الفرس والروم، بالمعارك الطاحنة بينهما(٢)، ولذلك لم يكن هناك خطر على الدولة الإسلامية من قبلهما، وكانت المعارك بين الدولتين، أقوى من أن تلفتهم إلى مايجرى داخل الجزيرة العربية من أحداث، وأغلب الظن أن العقيدة الجديده، والمعالم الرئيسة للدولة الإسلامية الناشئة، لم تكن معروفة لديهم(٣)- أو على الأقل-

---

(١) يوسف: د. جوزيف نسيم تاريخ الدولة البيزنطية ص٢٩١.

(٢) شهدت السنوات بين عام ٦٢٢م (العام الأول بعد الهجرة) وعام ٦٢٨م (العام السادس بعد الهجرة) سلسلة من الحملات الحربية، قام بها هرقل ضد الفرس، وانتهت الحرب عام ٦٢٨م (السادس الهجرى) بعد أن دخل عاصمة الفرس. عاشور: د. سعيد أوربا العصور الوسطى مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٨م جـ١ ص ١١٦، يوسف: تاريخ الدول البيزنطية ص ١٠٦، ١٠٧.

(٣) لعل مما يؤكد ذلك ما ذكرته المصادر، من كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل، وجهل هرقل- آنئذ- بالدعوة الاسلامية ورسولها صلى الله عليه وسلم والتماسه من يزوده بمعلومات عن ذلك من قوم هذا الرسول، فكان أبو سفيان،ودار بينهما الحديث الذى ذكرته كتب السيره، وكانت رسالة النبى صلى الله عليه وسلم إلى هرقل فى العام السادس أو السابع (٦٢٨-٦٢٩م) كما سيأتى.

لـم تكن واضـحـة تمام الوضـوح- آنئـذ، وربما حسـبوا أن المعـارك بين المسلمين وخصومهم، من نوع المعارك القبلية المعتادة.

وكـانت دولتـا الفـرس والروم، تنظران إلي العـرب نظرة ازدراء واحتـقـار؛ لفقرهم وبعدهم عن الحضارة والمدنية ولم يتوقعوا- أبدا- أن يأتى خطر داهم من قبلهم، وهم الذين لاتنتهى الحروب بين قبائلهم،واطمأن الروم بإقامة دولة عربية على الحـدود بينهـا وبين العـرب، تابعـة لهم هى دولة الغـسـانسنة، تحـمـيـهم من غـارات المغـيـرين من القـبـائـل العـربيـة، التى كـانت تقـوم بذلك من أجل السلب والنهب، كما قنع الفرس بإقامة دولة المناذرة على الحدود للغرض ذاته، هذا إلى جانب القبائل العربية الأخرى التى تحالفت معهم.

٢) قتال المسلمين لحلفاء الروم:

قـام المسلمـون بقـتـال حلفـاء الروم من العـرب، على حـدود بلاد الشـام، والبلاد القريبة من هذه الحدود، بسبب تحرشهم بالمسلمين، فغزوا دومة الجندل[١] سنة خـمس من الهـجـرة (٦٢٦م)، وكـان صـاحـبـهـا (أكـيـدر بن عـبـد الملك) نصـرانيـا، ويدين بالطاعـة والولاء للبـيـزنطيين، وكـان هذا الملك- كـمـا ذكـر ابن سعد والمسعودى- يعـترض التجار والمسافرين إلى المدينة، ولما وصل الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى دومة الجندل، تفرق أهلها، ولم يجد أحدا، فأقام بها عدة أيام، ثم عاد[٢].

---

(١) دومة الجندل: بضم أوله على سبع مراحل من دمشق، وتتوسط المسافة بين دمشق والمدينة المنورة. الحموى: ياقوت معجم البلدان. دار إحياء التراث العربى بيروت بدون تاريخ جـ٢ ص٤٨٧.

(٢) ابن سعد: أبو عبد الله محمد الطبقات الكبرى. القاهرة ١٩٦٨م جـ٢ ق١ ص٤٤، ٤٥، المسـعـودى : أبو الحـسـن على التنبـيـه والإشـراف دار الهـلال بيـروت ١٩٨١م ص ٢٣٠، ٢٣١.

وخرجت سرية بقيادة زيد بن حارثة إلى حسمى[١] سنة ست من الهجرة (٦٢٧م) لتأديب قبيلتى لخم وجذام، اللتين اعتدتيا على دحية بن خليفة الكلبى، الذى بعثه الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل، وكانت القبيلتان من حلفاء البيزنطيين، وقام زيد بمهمته خير قيام[٢].

كما ذهبت سرية بقيادة عبد الرحمن بن عوف، إلى دومة الجندل سنة ست من الهجرة (٦٢٧-٦٢٨م) وكان بها قوم من كلب فأسلموا[٣].

وقد علل المسعودى نكوص الروم عن مسعدة حلفائهم؛ بانشغالهم بالحرب مع الفرس في هذه الفترة[٣]، وهو ما ذكرته المصادر الأجنبية أيضا[٤].

---

(١) البلاذرى: أبو الحسن أحمد بن يحيى. أنساب الأشراف تحقيق محمد حميد الله (ذخائر العرب) رقم (٧) القاهرة ١٩٥٩م جـ١ ص٣٧٧، الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة ١٩٧٧م جـ٢ ص٦٤١، ٦٤٢.

وبعضهم يجعل هذه السرية سنة سبع ومنهم البلاذرى فى قول- ويرجع هذا الاختلاف إلى تاريخ رسائل النبى- صلى الله عليه وسلم، فالبعض يؤرخها بسنة ست،والبعض يؤرخها بسنة سبع كما سيأتى.

(٢) الواقدى: أبو عبد الله محمد. مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم. الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٨م ص٦.

(٣) المسعودى: التنبيه والإشراف ص٥٦.

(٤) لويس: القوى البحرية والتجارية ص٧٦، ٧٧.

أولاً : موقف هرقل من الإسلام وأثر ذلك على الاحتكاكات الحربيه مع المسلمين:

تقديـــم :

قضت الدولة الإسلامية بضع سنين، تجابه أعداءها الذين كانوا يتربصون بها الدوائر، ويتمنون القضاء عليها من مشركى مكه، ثم بعد ذلك من سائر المشركين في الجزيرة العربية، ولم يقدر لها أن تلتقط أنفاسها إلا بعد صلح الحديبية، فى العام السادس الهجرى، وعندئذ بدأ المسلمون تنفيذ رسالتهم، التى أرادها الله- تعالى- لهم؛ وهى نشر الإسلام خارج الجزيرة العربية، وكانت أولى الخطوات فى هذا الطريق، تلك الرسائل التى بعث بها النبى-صلى الله عليه وسلم- إلى الملوك والأمراء، داعيا إلى الله -تعالى- وهاديا إلى صراطه المستقيم، وكانت من جملة رسائله، رسالته إلى (هرقل) ملك الروم[1].

---

(١) اختلف المؤرخون فى تحديد إرسال هذه الرسائل، ويفهم من سيره ابن هشام أن ذلك تم بعد صلح الحديبية في العام السادس للهجرة، وذهب البلاذرى إلى ترجيح أنها أرسلت فى سنة سبع من الهجرة، أما المسعودى فذكر تاريخين، أحدهما سنة ست، والآخر سنه سبع، وذكر ابن كثير أنها كانت فى آخر سنة ست فى ذى الحجة، وأضاف أنه لاخلاف بين المؤرخين فى أنها كانت قبل فتح مكة، وبعد صلح الحديبية؛ لقول أبى سفيان لهرقل-فى حديثه إليه عن النبى صلى الله عليه وسلم- (نحن فى مدة لاندرى ماهو صانع فيها) يقصد الهدنة بينهما بمقتضى صلح الحديبية. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك السيرة تحقيق د.محمد فهمى السرجانى. المكتبة التوفيقية القاهرة ١٩٨٦م جـ٤ ص١٨٦، البلاذرى: أنساب الأشراف جـ١ ص ٥٣١، المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٢٤١، ٢٤٣، ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر البداية والنهاية الطبعة الأولى دار الفكر العربى القاهرة ١٣٥١هـ/١٩٣٣ جـ٤ ص ٢٦٢.

وكانت رسالة النبى-صلى الله عليه وسلم- إلى (هرقل)، نقطة فاصلة على طريق العلاقات بين دولة الاسلام الناشئة ودوله الروم، وقد نبهتها إلى وجود الدوله الإسلامية المطمئن الثابت، وإلى طموحها، وكان من الطبعى ألا تقبل دولة الروم، وكذلك دولة الفرس، دولة جديدة تختلف عنهما فى العقيدة والأخلاقيات والنظم، وفوق ذلك مستقلة عنهما سياسيا، ولاتخضع لنفوذ أية دولة منهما، وهو أمر- ربما- كان غريبا على أهل ذلك الزمان، فى تلك البقعة من العالم.

وكان من المستبعد أن تستجيب الدولتان الكبيرتان لدعوة الدولة الوليدة باعتناق عقيدتها، تعصبا لما ورثوه من عقيدة- من جهة- وترفعا وكبرا أن يأخذوا من هؤلاء العرب ما نزل على أحدهم من دين- من جهة أخرى- والعرب- فى نظرهم- لا شأن لهم ثقافيا وحضاريا، واقتصاديا وسياسيا، وهم منهم- كما يرون- بمنزلة الأتباع والعبيد.

وكان رد (كسرى) على رسالة النبى- صلى الله عليه وسلم- مثالا واضحا لهذه النظرة المليئة بالكبر والتعالى، فقد مزق الرسالة، واعتبر ذلك تطاولا وجرأة من رجل يعتبره- كما ذكرت المصادر- من جملة عبيده، ولم يكتف بتمزيق الرسالة، بل بعث إلى عامله على بلاد اليمن، ويدعى (باذان) وطلب منه أن يبعث إلى محمد برجلين جلدين، يأتيان به إليه، ولم يمهل الله- تعالى- (كسرى)، المجترئ على رسوله الكريم- صلى الله عله وسلم- فقد قتل بيد ابنه (شيرويه) سنة سبع للهجرة[1].

---

(١) الطبرى : جـ٢ ص ٦٥٦.

ا) رسالتا النبى -صلى الله عليه وسلم- إلى هرقل

كانت الرسالة الأولى سنة ست أو سبع من الهجرة- على خلاف بين المؤرخين[١]- وحملها إليه دحية بن خليفة الكلبى، وكان هرقل مقيما آنئذ بحمص، ونصها :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإنى أدعوك بداعية الإسلام، أسلم تسلم، ويؤتك الله أجرك مرتين، قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ،ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين) [٢].

أما الثانية، فقد انفرد بذكرها ابن كثير [٣] ،ولم يذكرنص الرسالة، وحملها دحية بن خليفه الكلبى- أيضا- وذلك سنة تسع من الهجرة، وكان - النبى صلى الله عليه وسلم- فى تبوك، وفى هذه الرسالة، دعوة إلى الإسلام، كالرسالة السابقة- وتزيد هذه الرسالة، أنه خير هرقل بين ثلاثة أمور: الإسلام أو الجزية أو الحرب، وكان هرقل مقيما بحمص أو دمشق.

---

(١) انظر ابن هشام: السيره جـ٤ ص١٨٦، البلاذرى: انساب الاشراف جـ١ ص ٥٣١، المسعودى: التنبيه والاشراف ص٢٤١، ٢٤٣.

(٢) البخارى : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل صحيح البخارى كتاب الشعب (٦٦) القاهرة ١٩٧٨م جـ١ ص ٧، الطبرى: جـ٢ من ص ٦٤٦-٦٤٩ والأريسيون- وفى رواية الأكاريون- الفلاحون والمراد بهم الرعيه، انظر ابن الأثير جـ٢ ص ١٤٥ حاشية رقم (١)، والنويرى: نهاية الأرب جـ١٨ ص ١٥٨ حاشية (١).

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٥ ص ١٥، وقد نقلها عن الإمام أحمد بإسناد لا بأس به.

ومما يؤكد صحة الرسالة الثانية، أن المؤرخين الآخرين- كالطبرى وابن الأثير والنويرى[١]- ذكروا جمع هرقل لكبار قومه، وأنه عرض عليهم الإسلام أو الجزيه أو الحرب، ورساله النبى- صلى الله عليه وسلم- الأولى، كانت مجرد دعوة إلى الإسلام، ولم تكن تستدعى من هرقل أن يخير قومه بين الأمور الثلاثة،وإنما الذى كان يستعدى ذلك الرسالة الثانية- التى انفرد ابن كثير بذكرها ،وهذا يؤكد صدور مثل هذه الرسالة، حتى يكون لعمل هرقل مبرر،وربما نسى المؤرخون الآخرون ذكر هذه الرسالة،أو اختلط الأمر عليهم.

ثم إنه ليس هناك مايمنع من وجود رسالة ثانية، وعلى النقيض من ذلك، هناك مايدعو إلى وجود مثل هذه الرسالة؛ فقد كان النبى- صلى الله عليه وسلم- دائم التذكير والدعوة إلى الإسلام، وقد مضى على رسالته الأولى إلى هرقل مايربو إلي السنتين،وقد اقترب النبى- صلى الله عليه وسلم- بوجوده فى تبوك، من مكان إقامة هرقل فى حمص أو دمشق[٢].

٣) موقف هرقل من الاسلام

كان هرقل وسائر أهل الكتاب - من اليهود والنصارى- يعلمون من كتبهم المقدسه، أن نبيا سيبعث، وقد بشر بهذا النبى موسى وعيسى عليهما السلام- كما ذكر القرآن الكريم- وستظهر النصوص القادمه اعترافهم بذلك.

---

(١) الطبرى : جـ٢ من ص ٦٤٦-٦٥١، ابن الأثير: جـ٢ من ص ١٤٣-١٤٥، النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب. نهايه الأرب فى فنون الأدب نسخه مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسه المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ١٩٥٤م جـ١٨ من ص ١٥٨ إلى ص١٦٢.

(٢) المسعودى: التنبيه والإشراف ص ٢٥٢، ابن كثير : البداية والنهاية جـ٥ ص ١٥.

وقد بلغ هرقل أمر النبى- صلي الله عليه وسلم- قبيل وصول رسالته الأولى إليه، وأخذ يتعرف على أخبار هذا النبي، ويسأل عنه(١)، ومن أشهر من سألهم عنه أبو سفيان بن حرب(٢)، ولما وصلته الرسالة اهتم بها ،وجعلها بين فخذه وخاصرته، وبعث إلى أحد العلماء المتبحرين فى العلم، وكان مقيما برومية(٣)،وحدثه عما تجمع لديه من أخبار عن النبى -صلى الله عليه وسلم-

---

(١) المشهور أن سؤال هرقل لأبى سفيان كان بعد وصول رسالة النبى -صلى الله عليه وسلم- وهو ما ذكره ابن الأثير، وذكر البخارى فى صحيحه المحاوره بين أبى سفيان وهرقل، وبعد أن انتهى منها قال :(ثم دعا هرقل بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث به..فقرأه) فكأنه كان على علم بورود كتاب من النبى صلى الله عليه وسلم- دون أن يعلم مافيه- قبل أن يسأل أبا سفيان عنه، وكان ورود هذا الكتاب سببا فى سؤاله.

أما الطبرى فعنده أن سؤال أبى سفيان، كان قبل وصول رسالة النبى-صلى ا لله عليه وسلم- فقد ذكر أن صاحب بصرى، بعث إلى هرقل برجل أخبره بظهور النبى-صلى الله عليه وسلم- وبين أن ذلك كان من عادة الملوك. فقد كانوا يتهادون الأخبار الجديدة فيما بينهم، وعندما بلغ هرقل ذلك طلب من صاحب شرطته أن يقلب الشام ظهر وبطنا حتى يأتيه برجل من قوم هذا الرجل، فأتى له بأبى سفيان، وكان بينهما الحديث المعروف، ثم جاءته رسالة النبى- صلى الله عليه وسلم - بعد ذلك. البخارى: جـ١ من ص ٥-٧ الطبرى: جـ٢ ص ٦٤٦، ٦٤٧، ابن الأثير: جـ٢ ص ١٤٤ وقد أخذ البحث برواية الطبرى- على الرغم من عدم شهرتها- لأنها تظهر مدى يقظة هرقل واهتمامه بالدعوة الجديدة وصاحبها، كحدث جديد، وأمر كانوا ينتظرونه.

(٢) اقرأ المحاورة بين هرقل وأبى سفيان بشأن النبى صلى الله عليه وسلم فى صحيح البخارى جـ١ من ص ٥-٧ والطبرى : جـ٢ من ص ٦٤٦-٦٤٨.

(٣) رومية: ذكر الحموى أن هناك مدينتين بهذا الاسم، إحداهما بالمدائن (ببلاد الفرس) أما الاخرى فهى روما، وقد ذكر عنها «أنها شمالى وغربى القسطنطينية وبينها مسيرة خمسين يوما أوأكثر، وبها يسكن البابا الذى تطيعه الفرنجية ، وهو لهم بمنزلة الإمام، وفى داخل المدينة كنيسة مبنية على اسم ماربطرس وماربولس الحواريين، وهما مدفونان فيها». =

وصفاته والرسالة التى بعث بها إليه، فكتب إليه هذا العالم: إنه للنبى الذي كنا ننتظره -لاشك فيه- فاتبعه وصدقه(١).

وهكذا اطمأن هرقل إلى صدق النبى-صلى الله عليه وسلم- ولكنه ارجأ إسلامه حتى يعرف رأى رعيته، فجمع عظماء الروم فى دسكرة(٢) له بحمص «ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم اطلع فقال يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبى، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت فلما رأى هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان، قال ردوهم على، وقال إنى قلت مقالتى آنفا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له، ورضوا عنه(٣).

وبذلك انصرف هرقل عن الدخول فى الإسلام، خوفا على ملكه، بل وعلى نفسه كذلك فقد ذكر ابن كثير أنه لما أعلن أحد الأساقفة إسلامه- أمام هرقل- بعد أن ظهر له صدق النبى-صلى الله عليه وسلم- وأنه النبى الذى كانوا

= أما القزوينى فعنده أن رومية هى روما ،ولاشئ غير ذلك. وواضح أن النص يقصد برومية هنا روما، فقد كانت- وماتزال - من أكبر مراكز المسيحية فى العالم، وكان بها- ولاشك- عدد كبير من العلماء في الدين انظر: الحموى: جـ٣ من ص ١٠٠-١٠٢، القزوينى: زكريا بن محمد آثار البلاد وأخبار العباد. دار صادر بيروت بدون تاريخ من ص ٥٩١-٥٩٥.

(١) الطبرى : جـ٢ ص ٦٤٩، ابن الأثير: جـ٢ ص ١٤٣.

(٢) دسكرة : بناء يشبه القصر وحوله بيوت، ويكون للملوك، المقرى الفيومى. احمد بن محمد المصباح المنير المطبعة العلمية القاهرة ١٣١٥هـ ص٨٩.

(٣) البخارى: جـ١ ص٨، الطبرى : جـ٢ ص٦٥٠.

ينتظرونه، قال هرقل: «أعرف أنه كذلك،ولكنى لا أستطيع أن أفعل (أى أسلم) إن فعلت ذهب ملكى وقتلنى الروم»[١].

وذكر الطبرى أن هرقل قال لدحية بن خليفة الكلبى : «ويحك! والله إنى لأعلم أن صاحبك نبى مرسل، وأنه الذى كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكنى أخاف الروم على نفسى؛ ولولا ذلك لاتبعته».

وأثبت هرقل لدحية بالدليل العملى صدق قوله، حيث بعثه إلى أسقف له مكانة عند الروم، ويستمعون لقوله، يدعى (صغاطر)، فآمن هذا الاسقف بالنبى وذهب إلي قومه بالكنيسة فدعاهم إلي الإيمان به، فوثبوا عليه فقتلوه، فلما رجع دحية إلي هرقل قال :«قد قلت لك : إنا نخافهم علي أنفسنا، فصغاطر- والله- كان أعظم عندهم وأجوز قولا منى»[٢].

أما رد هرقل على رسالة النبى- صلى الله عليه وسلم- فلم تذكر معظم المصادر أن هرقل بعث برد مكتوب على رسالة النبى -صلى الله عليه وسلم- الأولى[٣]، فلعله اكتفى بما رأى دحية وماسمع،وذكرت بعض هذه المصادر، أن هرقل دعا قومه إلي الإسلام، فأبوا، فعرض عليهم دفع جزيه، فرفضوا، فطلب منهم اعطاء أرض سورية للمسلمين، فلما رفضوا تركهم ورحل إلى القسطنطينية[٤]، وهذا الأمر لايستقيم- كما سبق- مع الرسالة الأولى التي كانت مجرد دعوة إلى الإسلام، ويمكن أن يكون ذلك حدث بعد الرسالة الثانية.

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٤ ص ٢٦٧.

(٢) الطبرى: جـ٢ ص ٦٥٠، ابن الأثير : جـ٢ ص ١٤٤.

(٣) البخارى : «صحيح البخارى جـ١ من ص ٥-٨، الطبرى : جـ٢ من ص ٦٤٦-٦٥١، ابن الأثير : جـ٢ من ص ١٤٣-١٤٥، ابن كثير : جـ٤من ص ٢٦٢-٢٦٨.

(٤) الطبرى، ابن الأثير، ابن كثير المصادر السابقة.

أما اليعقوبى، فقد ذكر- وحده- أن هرقل رد علي رسالة النبى-صلى الله عليه وسلم- ونص هذا الرد :(إلى أحمد رسول الله الذي بشر به عيسى، من قيصر ملك الروم، إنه جاءنى كتابك مع رسولك،وإنى أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا فى الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وإنى دعوت الروم أن يؤمنوا بك فأبوا،ولو أطاعونى لكان خيرا لهم، ولوددت أنى عندك فأخدمك، وأغسل قدميك) (١).

والمرجح أنه لم يكن هناك رد مكتوب على رسالة النبى صلى الله عليه وسلم - الأولى؛ لأن معظم المؤرخين لم يذكروا ذلك،ولو كان هناك مثل هذا الرد الذى ذكره اليعقوبى، والذى يدل دلاله قاطعه علي دخول هرقل فى الإسلام وتصديقه بنبوه محمد صلى الله عليه وسلم، لماكان هناك ضرورة إلى إرسال رسالة أخرى تدعوه إلى الإسلام.

ومما يدعو إلى هذا الترجيح- أيضا- ما ذكره ابن كثير من حديث النبى- صلى الله عليه وسلم- إلى التنوخى- الذى بعثه هرقل إليه عقب الرسالة الثانية- حيث قال له :(يا أخا تنوخ إنى كتبت بكتاب إلى كسرى والله ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى النجاشى بصحيفة فخرقها والله مخرقه ومخرق ملكه (٢)، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها. فلن يزال الناس يجدون منه بأسا ما دام فى العيش خير) (٣).

---

(١) اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب تاريخ اليعقوبى، دار صادر بيروت بدون تاريخ جـ٢ ص ٧٧، ٧٨.

(٢) النجاشى هذا غير النجاشى الذى هاجر المسلمون إليه وكان مسلما ، لأن كلمة النجاشى كانت لقبا لملوك الحبشة.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٥ ص١٥، ١٦.

فالصحيفة- هنا- الرسالة الأولى إلى هرقل؛ لأنها ذكرت مقرونة برسالتيه إلى كسرى والنجاشى، وكانت تلك الرسائل فى عام واحد[١]، والمفهوم من إمساك الصحيفه- هنا- عدم الرد عليها.

أما موقف هرقل من الرسالة الثانية، فإنه جمع قسس الروم وبطارقتها، وعرض عليهم ما جاء فى رسالة النبى صلى الله عليه وسلم، من الإسلام أو الجزيه أو الحرب، ونصحهم بالإسلام أو دفع الجزيه، وخوفهم من قتاله لأن الدائرة ستكون عليهم - كما جاء فى كتبهم المقدسة، ولكنه اعترضوا عليه اعتراضا شديدا، قائلين :«تدعونا إلى أن نذر النصرانية أو نكون عبيدا لأعرابى جاء من الحجاز؟» فبادر بتحسين موقفه عندهم قائلا :«إنما قلت ذلك لأعلم صلابتكم على أمركم»[٢].

ثم بعث هرقل بعربى من قبيلة تنوخ على دين النصرانية، إلى النبى صلى الله عليه وسلم يحمل رد رسالته إليه،ولم يكن فى الرد اختيار لأحد الأمور الثلاثه، التى ذكرها النبى صلى الله عليه وسلم، وهى الإسلام أو الجزية أو الحرب،وإنما كان يتضمن سؤالا، هو «تدعونى إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟» وأمر رسوله أن ينظر فى ظهره،وهل يرى فيه شيئا يريبه؟[٣].

ويبدو أن هرقل- على الرغم مما ثبت لديه من صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم- كان يريد بسؤاله، وبنظر مبعوثه فى ظهر النبى، أن يزداد قلبه اطمئنانا بنبوته، وقد أجاب النبى صلى الله عليه وسلم عن السؤال بقوله :

---

(١) الطبرى: جـ٢ ص ٦٤٤ ، ابن الأثير: جـ٢ ص ١٤٣.

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٥ ص ١٥.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٥ ص١٥.

«سبحان الله ! أين الليل إذا جاء النهار» واحتار التنوخى فى تنفيذ ما أمره به هرقل، من النظر إلى ظهره- صلى الله عليه وسلم- ولكنه عليه الصلاة والسلام،أذهب عنه هذه الحيرة، ورفع عنه الحرج، عندما كشف عن ظهره وقال له «ها هنا امض لما أمرت» فنظر فوجد خاتم النبوة(١).

ولاشك أن ذلك زاد هرقل يقينا، ولكنه لايستطيع الدخول فى الإسلام خوفا على نفسه وملكه(٢)، وربما أدرك أنه تجاه رساله النبى صلى الله عليه وسلم- لايمثل شخصه فقط، وإنما يمثل دولة الروم، وأن من الحكمة- فى نظره- أن يتصرف حسب رأى رجال هذه الدوله، ويحتفظ برأيه الخاص لنفسه فى هذه المسألة الخطيرة، وصدق الله-تعالى- إذ يقول :(الذين آتيناكم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم،وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون) (٣) وبهذا تغلبت الناحية الساسية لدى هرقل على الناحية الدينية.

ولعل هرقل رأى -حينئذ- الرحيل إلى القسطنطينية، وقد أشارت إلى هذا الرحيل بعض المصادر الإسلامية، وإن كانت قد جعلت هذا الرحيل بعد رسالة النبى -صلى الله عليه وسلم الأولى إليه(٤)، وقد أشرت- من قبل- إلى ماعليه معظم المؤرخين من أنها رسالة واحدة، وما انتاب هذا الموضوع من خلط ونسيان.

---

(١) المصدر السابق : ص ١٦.

(٢) الطبرى: جـ٢ ص ٦٥٠، ٦٥١، ابن الأثير : جـ٢ ص ١٤٤.

(٣) سورة البقرة الآية (١٤٦).

(٤) الطبرى: جـ٢ ص ٦٥١، ابن كثير: جـ٤ ص ٢٦٨، وقد عاد هرقل مرة أخرى إلي الشام، فتذكر المصادر أنه كان بها عند الفتح الإسلامى، ولما فتحت قنسرين، غادرها المغادرة النهائية، قائلا :(عيك السلام يا سوريه، سلاما لا اجتماع بعده) وكان ذلك سنة ١٥هـ أو ١٦ هـ. انظر الطبرى: جـ٣ ص ٦٠٢، ٦٠٣، ابن الأثير : جـ٢ ص ٣٤٤.

٣) أدلة ميل هرقل إلى الإسلام

ظهر من استعراض موقف هرقل من الإسلام، أنه كانت عنده رغبه فيه، وميل إليه، ومما يبرز هذا الميل ويدل عليه، ما أثبتته النصوص من تعظيمه لكتاب الرسول- صلى الله عليه وسلم- إليه، ومن ذلك أنه جعله بين فخذه وخاصرته، كما عامل حامل الكتاب، ورسول رسول الله- صلي الله عليه وسلم- دحيه بن خليفة الكلبى، معاملة كريمة(١)، وعندما أزمع العودة،أجازه بمال ثياب(٢).

ومن أدلة هذا الميل القوية، ما سنوضحه- فيما بعد- من انصرافه عن حرب النبى- صلى الله عليه وسلم- وتغاضيه عن تحرشات المسلمين بدولته، ليس هذا فحسب، بل إنه كان يصرف اتباعه وحلفاءه عن قتاله، وينهاهم عن ذلك، فقد أوردت المصادر أن الحارث بن شمر الغسانى أمير غسان(٣)، عزم على قتال النبى صلى الله عليه وسلم- وأعد العدة لذلك، بعد وصول دعوة النبى- صلى الله عليه وسلم- له بالدخول فى الإسلام، فقد فهم أن هذه الدعوة وسيلة لأخذ الملك منه، وقال :(من ينزع منى ملكى؟» وقبل أن يسير إلى قتال

---

(١) الطبرى جـ٢ من ٦٤٦ إلى ٦٥١، ابن الأثير : جـ٢ من ص ١٤٣ إلى ١٤٥، ابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ من ص ٢٦٢ إلى ٢٦٨.

(٢) الطبرى: المصدر السابق ص٦٤٢ وقد ذكر أن دحيه عند وصل إلى حسمى، قطع عليه الطريق ناس من جذام، واخذوا ما معه، وكان ذلك سببا فى خروج سريه زيد بن حارثة إلى هنا المكان. وسيأتى الحديث عنها.

(٣) أمير غسان عند ابن سعد، وملك تخوم الشام عند ابن هشام، وعامل هرقل على دمشق وأعمالها عند المسعودى، وملك البلقاء من أرض الشام عند النويرى. ابن سعد: أبو عبد الله محمد الطبقات الكبرى بيروت ١٩٥٧جـ١ ص٢٦١، ابن هشام : جـ٤ ص١٨٧، المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٢٤٣، النويرى: نهاية الأرب جـ١٨ ص١٦٥.

النبى- صلى الله عليه وسلم- كتب إلى هرقل يستأذنه- فقد كان تابعا له- فرد عليه :(ألا تسر إليه، واله عنه) (١).

٤) دواعى ميل هرقل إلى الإسلام :

إذا كان هرقل لم يعتنق الإسلام، فإن النصوص التاريخية تشير إلى ميله إلى تصديق النبى -صلى الله عليه وسلم- والإيمان بدعوته، وكانت دواعى هذا الميل مبنية على أدلة قاطعة من كتبهم المقدسة على نبوته، وبراهين ساطعة من سيرته وهديه- صلى الله عليه وسلم - على أنه رسول رب العالمين، وكان خاتم النبوة دليلا ماديا، لاينكره إلا جاحد مكابر.

ولم يكن هرقل بدعا -من بين الملوك والإمراء المعاصرين- فى ميله إلى الاسلام، فهذا هو المقوقس الذى رد على النبى- صلى الله عليه وسلم- ردا جميلا وأهدى إليه (٢)، بل إن أحد نجاشيى الحبشة دخل الإسلام، ويدعى الأصحم أو أصحمة (٣)، ومما تجدر ملاحظته، أن هؤلاء الملوك كانوا من أهل الكتاب النصارى؛ لأن علمهم بالكتب المنزلة، جعلتهم أقرب إلى معرفة الحق قال الله تعالى :(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لايستكبرون- وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) (٤).

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى جـ١ ص٢٦١ (ط. بيروت)، النويرى: نهاية الأرب جـ١٨ ص١٦٥.

(٢) الطبرى : جـ٢ ص ٦٤٥، النويرى : جـ١٨ ص ١٦٤.

(٣) عند الطبرى الأصحم بن أبجر، وعند المسعودى أصحمة بن بحر. الطبرى : جـ٢ ص ٦٥٢، المسعودى: التنبيه والإشراف ص٢٤٢.

(٤) سورة المائدة : الآيتان (٨٢)، (٨٣).

وقـد يكون من دواعى-مـيل هرقل إلى الإسـلام، ودعـوة الروم إلى هذا الدين- كما ذكرت المصادر الإسلامية- سبب سياسى، وأنه رأى فى هذا الدين- لو أقبلت الروم على اعتناقه- سبيلا إلى القضاء على الخلاف المذهبى، الذى قسم الإمبراطورية، وأضعفها، وقد أقدم على مايشبه هذا- فيما بعد- عندما أتى بمذهب جـديد فى النصـرانيـة، لاعـهـد للنصـارى به، هو مـذهب (المونوثيليته) [١]، مخالفا بذلك المذهبين السائدين فى إمبراطوريته (اليعاقبه والملكانيين) [٢]، اعتقادا منه أن ذلك كفيل بالقضاء علي الانقسام المذهبي، ولكنه كان مخطئا فى هذا الاعتقاد.

ولعل إقدام هرقل علي تغيير مذهبه، واعتناق مذهب جديد، لظروف سياسية، يجعلنا لانستبعد ميل هرقل إلى الإسلام، فالذى يغير مذهبه، من السهل عليه- كذلك- أن يغير دينه، وبخاصة إذا ثبت لديه صحة هذا الدين.

---

(١) الموثوثيليته: مذهب يقول بالإرادة الواحدة والمشيئة الواحدة للسيد المسيح عليه السلام، دون الالتفات إلى طبيعته. بتلر: د. الفريد فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد أبو حديد تاريخ المصريين. (٢٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩م جـ١ص ١٢١، لويس: ص٧٧. ٧٨.

(٢) مذهب اليعاقبه، ويقول بطبيعة واحدة إلهية للسيد المسيح عليه السلام،ويعرف - أيضا- بالمذهب (المونوفيسيتى) وكانت مصر وسوريا تعتنقان هذا المذهب،ومذهب الملكانيين، ويقول بطبيعتين إلهية وبشرية للسيد المسيح عليه السلام،ويعرف - أيضا بالمذهب (المونوثيلى) وكانت القسطنطينية وسائر أقاليم الإمبراطورية البيزنطية تعتنق هذا المذهب هسى ج.م. العالم البيزنطى ترجمة د.رأفت عبد الحميد الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة ١٩٨٢م من ص١٠٥-١٠٧ والحاشية رقم (١٧).

٤) وقفة مع المصادر غير الاسلامية

لاتذكر المصادر غير الاسلامية- والبيزنطية منها بوجه خاص- شيئا عن موقف هرقل من الإسلام وميله إليه، وذلك لأسباب، منها تعصب المؤرخين العنصرى والدينى فى هذه الفترة،وقد فعلوا قريبا من ذلك، تجاه الفتوحات الإسلامية- فيما بعد- فتغاضت عن بعضها، أو ذكرتها ناقصة مبتورة(١).

وسكوت المصادر غير الإسلامية أو البيزنطية المعاصرة، عن موقف هرقل من نبى الإسلام، لاينال من صدق الوقائع التى أوردتها المصادر الإسلامية؛ وبخاصة أن من هذه المصادر من أوفى على الغاية فى تحرى التزام الرواة بالصدق- كالبخارى وغيره- ومن الإساءة البالغة إلى أنفسنا وإلى تاريخنا، أن نهمل ما ذكرته مصادرنا الإسلامية، أو نتشكك فيه؛ لأن المصادر الأخرى لم تذكرها أو تتعرض لها، وكأننا بذلك نحجب الثقة عن مؤرخينا المسلمين، ونحط من شأنهم، ونعطى هذه الثقة لغيرهم، ونرفع من قدرهم- كما يفعل بعض مؤرخينا المحدثين للأسف- وهو شعور بغيض بالدونيه مرفوض عقلا ودينا.

إن هذا الاتجاه فى تناول أحداث التاريخ الإسلامى، اتجاه جد خطير، لايجب التهوين من شأنه، لأنه يؤدى بنا- فى النهاية- أن نترك تراثنا وثقافتنا وهويتنا، ونتطفل على موائد الآخرين ومايجودون به علينا، وهو غاية مايتمناه أعداء حضارتنا وثقافتنا الإسلامية.

---

(١) يوسف : د. چوزيف تاريخ الدولة البيزنطية ص١١١ وقد نقل عن (أولمان) قوله . إنهم كانوا يكرهون فكره سرد هذه الأحداث- أحداث الفتح الاسلامى- و(أومان) مؤلف كتاب قصة الامبراطورية البيزنطية :

Oman. Ch, Story of the By Zantine Empire, New York, 1892.

هذا وقد سار معظم المؤرخين الأوربيين المحدثين، على نهج أسلافهم في التغاضى عن كل ما يعلى من أمر الإسلام، أو يظهر الاقبال عليه من معاصرى فترة النبوة؛ بل كانوا- فى بعض الأحيان- أكثر جرأه، فأنكروا مثل هذه الأشياء، ونالوا من المؤرخين المسلمين الأقدمين الذين ذكروها، ومن أوضح الأمثلة على ذلك فى موضوعنا، وهو ميل هرقل إلى الإسلام، ما ذكره المؤرخ الانجليزى (الفريد بتلر) من أن بعض مؤرخى العرب (استغل رد هرقل الحسن على رسالة النبى (صلى الله عليه وسلم) وخلق قصة منمقة سخيفة عجيبة، يذكر فيها إسلام هرقل، ولم يكن شئ أبعد من ذلك الأمر عنه، وماذا عسى كان يدفعه إلى تصديق ما أتى به زعيم عربى لايعرفه، وذلك فى حين كان ملكا سيد الكتائب الكثيرة)[1].

وإنه لمن مجاوزة الحق، والتجنى على تاريخنا الاسلامى- أيضا- أن نترك مثل هذه الوقائع؛ بحجة أنها أقرب إلى الأمور الدينية، وربما التوهم- كذلك - أنها تثير حساسية خاصة لدى الآخرين، فمثل هذه الأمور لها دور كبير فى كشف الحقائق، وتوضيح الصور، في فتره مثاليه- لاتتكرر- من تاريخ أمتنا الإسلامية، ومن الخطأ الفادح عدم ذكرها.

---

(١) فتح العرب لمصر جـ١ ص ١٢٨ وإذا كان لى من تعليق على كلمه (بتلر) فهو أنه فى استبعاده تصديق هرقل للنبى صلى الله عليه وسلم لايذكر عنه أنه نبى صاحب رسالة سماوية، وإنما هو زعيم عربى، وخلط بين السياسة والدين، عندما ذكر ملك هرقل وقوته، وكيف وهو بهذا الملك وهذه القوة، يتبع زعيما عربيا لايعرفه. ومقالته هذه المتعجرفة المتعالية تذكرنا بما قاله أسلافه، ردا على هرقل عندما دعاهم إلى الاسلام: (تدعونا إلى أن نذر النصرانيه أو نكون عبيدا لأعرابى جاء من الحجاز) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٥ ص١٥.

٥) أثر موقف هرقل من الإسلام على الاحتكاكات الحربية مع المسلمين :

تذكر المصادر التاريخية، أنه لم يكن بين هرقل والمسلمين قتال- فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم إلا ما كان فى مؤته، واتسم موقفه العسكرى بعد مؤته وحتى وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، بالتراخى والقعود عن حرب المسلمين، على الرغم مما أبداه المسلمون له من صنوف التحدى والاستفزاز، التى كانت توجب الرد عليها، كما سيأتى.

ولم تذكر ما اطلعت عليه من المصادر والمراجع، تعليلا واضحا لهذا الأمر، فهل يكون تبرير ذلك ما ذكره أحد المؤرخين الدارسين لشخصية هرقل، من أنه «أبدى شخصية متناقضة، فيها البطء أحيانا، والسرعة أحيانا، وفيها الضعف والخور مرة، والإقدام والشجاعة مرات....وإن كنا لانجد لها التعليل الكافى؟»[١].

الواقع أن الاستعانة بهذا التبرير- فى نظر البحث المنصف- فيه تجن على الحقائق، وعلى هرقل نفسه، الذى ذكرت المصادر أنه يعتبر أعظم من أنجبهم التاريخ البيزنطى، وقد تسلم الحكم والإمبراطورية حطاما من شتى النواحى،وقضى حوالى اثنتى عشرة سنة فى إصلاح أحوالها، ثم اندفع فى قتال شرس مستميت ضد الفرس، الذين استولوا على كثير من أقاليمها واستمر قتالهم مايزيد على ست سنوات (٦٢٢-٦٢٨م) وأدار الحرب معهم فى شجاعة ومهارة حتى خلص الامبراطورية منهم، وتتبعهم حتى عاصمة ملكهم[٢]، ولم

---

(١) يوسف : د. چوزيف الدولة البيزنطية ١١٥.

(٢) لويس: القوى البحرية والتجارية ص٧٦، ٧٧، عاشور: د. سعيد أوربا العصور الوسطى جـ١ ص١٠٠، ١٠١.

يؤخذ على هرقل طوال هذه المدة مايمكن أن نصفه بالبطء أو الجبن، فهل طرأ ذلك عليه فجأه، بعد أن حدثت المناوشات العسكرية بينه وبين المسلمين، والتى كانت بعد عام واحد من انتهاء حروبه مع فارس؟

أما تبرير البحث لتراخى هرقل فى مواجهة المسلمين فى عهد النبى صلى الله علهي وسلم فهو أحد الأمرين:

الأول: ما ذكرته النصوص الإسلاميه، من ميل هرقل إلى تصديق النبى- صلى الله عليه وسلم- فقد كان من الطبعى- وقد علم هرقل صدقه- ألا يقدم على حربه، احتراما لقدره، وخوفا ورعبا من أن يناله مكروه، وقد عبر عن ذلك بنفسه، عندما كان يعرض على قومه كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الذى يدعوهم إلى ثلاثة أمور: الاسلام أو الجزية أو الحرب، فقد قال لهم :«والله لقد عرفتم فيما تقرءون من الكتب لتؤخذن»[1] يعنى إذا حاربتموه.

ولذلك لم يكن بينه وبين المسلمين - فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم- حرب، إلا ما كان فى مؤته، وربما كانت الحرب فيها من باب مجاراة قومه، أو من باب تغليب الناحية السياسية على الناحية الدينية، كما غلبها فى عدم إسلامه، أو اضطر إلى ذلك.

الثانى: الحالة التي صارت إليها الامبراطوريه الرومية، بعد حروبها الطويلة مع الفرس والتى استمرت من سنة ٦١١م إلى سنة ٦٢٨م، فقد كانت دولة الروم دولة عظمى وقوة كبرى، بدليل انتصارها على دولة الفرس، التى كانت دولة قوية وعظيمة أيضا، واستمرت بعد هذا الانتصار على شئ من القوة- وبخاصة فى عهد هرقل- وكان عدد قواتها فى معركة مؤتة، والمعارك الأخرى التالية، كبيرا، ويفوق بكثير عدد القوات الإسلامية.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٥ ص١٥.

وعلي الرغم من ذلك فقد أثرت معاركها مع الفرس تأثيرا بالغا على قوتها، وأدت تكاليف تلك المعارك الباهظة إلى سوء حالتها المالية، وأصبح جيشها فى حاجة إلى عناصر قوية، يعوض بها مافقده فى تلك الحروب، وأصابتها تلك الحروب - بلاشك -بشئ من الضعف والإعياء، وكانت فى حاجة إلى فترة تسترد فيها عافيتها، وتداوى جراحها، وتستجمع قوتها [١]، ولكن معاركها مع المسلمين كانت أسرع إليها من تحقيق ذلك.

وإذا كانت كثرة الجند دليلا على قوة الدولة وتفوقها، ومؤشرا بانتصارها على أعدائها، فقد تخلف ذلك تماما فى وضع دولة الروم مع المسلمين، ولم تؤد أعداد الروم الكثيرة إلى انتصارهم على المسلمين، بل انتصر المسلمون عليهم، علي الرغم من قلة عددهم، وكان أهم أسباب ذلك، أنه لم يكن لدى جند الروم ما لدى الجند الإسلامى، من قوة الإيمان، وصدق العزيمة ووحدة الهدف، والعزوف عن الدنيا، والرغبة فيما عند الله،والمصادر التاريخية حافلة بما يؤكد ذلك، تستوى فى ذلك المصادر الإسلامية وغير الإسلامية، ومما نقل عن المؤرخين الروم المعاصرين لهذه الفترة،ما ذكر أن حاكما روميا فى القرن السابع الميلادى، أرسل إليه الامبراطور (هرقل) يوبخه لعجزه عن صد المسلمين، فرد عليه هذا الحاكم قائلا : (إنهم أقل منا عددا، ولكن عربيا واحدا يعادل مائة من رجالنا؛ ذلك أنهم لايطمعون فى شئ من لذات الدنيا، ويكتفون بالكساء البسيط،والغذاء القليل، هذا فى الوقت الذى يرغبون فيه فى الاستشهاد، لأنه أفضل طريق يوصلهم إلى الجنه، فى حين نتعلق نحن بأهداف الحياة، ونخشى الموت، ياسيدى الامبراطور!) [٢].

---

(١) يوسف: تاريخ الدول البيزنطية ص١١٥.

(٢) عاشور : أوربا العصور الوسطى جـ١ ص١٢٠ نقلا عن :

Eyre : European Civilisation, vol, 111. pp. 63-64.

واعترف المؤرخ الرومى (جيفوند) الذى عاش فى القرن الثامن الميلادى (الثاني الهجرى) «بأن الحماسة التى بثها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن بعده الصحابة، فى نفوس الجيوش الإسلامة المقاتلة، وحثها على الجهاد فى سبيل الله، للفوز بفردوس النعيم، وما جاء فى كتاب الله، من أن الإسلام هو دين العالمين، وأن رسالته يجب أن تبلغ إلى كافة البشر... دفع المقاتل المسلم إلى الاستشهاد فى سبيل نشر هذا الدين خارج الجزيرة العربية،والدفاع عنه،ومن هنا- كما يرى جيفوند- كان الجندى المسلم أشد حماسا وإيمانا فى خوض الحروب من الجندى البيزنطى»(١).

وبهذا كانت دولة الروم على ماتبقى لها من قوة - فى هذه الفترة- ضعيفة بالنسبة للدولة الاسلامية؛ بما عندها من طاقة روحية، وقوة إيمانية(٢).

وأخيرا فقد كان لموقف هرقل من الإسلام، أثر فى الاحتكاكات الحربية مع المسلمين، وترتب على ذلك تأكيد تفوق المسلمين على الروم فى موازين القوى بينهما.

ومما تجد ملاحظته أن عزوف هرقل عن حرب المسلمين، لم يحدث أمرا جديدا فى موازين القوى، ولكنه أكد وضعا قائما، وهو التفوق الإسلامى فى تلك الموازين.

---

(١) يوسف : الإسلام والمسيحيه ص٥٣ نقلا عن :

Ghevond, Histoire des Guerres et des conquetes de Arabes en Armenie, p. 2.

(٢) وكيف لاتكون كذلك وفيها رسول الله-صلى الله عليه وسلم- الأسوة الحسنة، والسراج المنير، وعليه يتنزل الأمين جبريل بالوحى من رب العالمين.

أولاً: الاحتكاكات الحربية بين الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم

١) غزوة مؤتة [١]

كانت غزوة مؤتة أول لقاء مباشر بين المسلمين والروم، وذلك فى عام ٨هـ/ ٦٢٩م وهو العام التالى للعام الذى انتهت فيه الحروب الرومية الفارسية[٢].

أما أسباب هذه الغزوة، فتذكر المصادر التاريخية أن شرحبيل بن عمرو الغسانى[٣] قتل الحارث بن عمير الأزدى، الذى بعثه النبى- صلى الله عليه وسلم- رسولا إلى صاحب بصرى[٤]، حاملا إليه الدعوة إلي الاسلام[٥].

---

(١) مؤتة بالضم ثم واوا مهموزة، قرية من قرى البلقاء فى حدود الشام أو من مشارف الشام. الحموى: معجم البلدان جـ٥ ص٢١٩، ٢٢٠.

(٢) عاشور: أوربا العصور الوسطى جـ١ ص ١١٦ نقلا عن :

Cam: Med. Hist. Vol. 2, p. 231.

(٣) من أمراء الغساسنة بالشام، وقد أشار المسعودى إلى أنه كان قائد جيش متنصرة العرب من غسان وقضاعة وغيرهم في معركة مؤتة، ومن الجائز أنه كان أمير مؤتة- كما ذكرت بعض المراجع- وربما كان أميرها وأمير بلاد أخرى بجانبها ،وربما كانت مؤتة مجرد قاعدة لإمارته، حتى يتناسب ذلك ووضعه كأمير كبير، وإن كانت المصادر- التى بين يدى- خالية من الاشارة إلى شئ من ذلك انظر الطبرى :جـ٣ ص٣٦-٤٢ ،المسعودى: التنبيه والاشراف ص٢٤٦ ،ابن الأثير: جـ٢ من ص ١٥٩-١٦١ ، ابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ من ص٢٤١-٢٦٠ ، سالم : د. السيد عبد العزيز تاريخ الدولة العربية مؤسسة الثقافية الجامعية الاسكندرية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م ص١٣٢.

(٤) لم تذكر المصادر التى اطلعت عليه اسمه،واكتفت بصاحب بصرى أو عظيم بصرى، وبصرى: موضع بالشام من أعمال دمشق، وهى قصبة كورة حوران. الحموى: معجم البلدان جـ١ ص٤٤١ وانظر البخارى: صحيح البخارى جـ١ ص٦، الطبرى: جـ٢ ص٦٤٦، ٦٤٧، المسعودى: التنبيه والاشراف ص٢٤٦، ابن كثير: البداية والنهايه جـ٤ ص ٢٦٣.

(٥) المسعودى: التنبيه والاشراف ص٢٤٦.

كما أشارت بعض المصادر إلى قيام الروم بقتل عاملهم على معان[١] وماحولها ،وهو فروة بن عمرو الجذامى، بعد أن بلغهم إسلامه[٢].

وأعد المسلمون جيشا بلغت عدته ثلاثة آلاف؛ للرد على استفزازات الروم والقبائل العربيه المتحالفة معها، وتأمين الدعوة الإسلامية، وتحرك هذا الجيش صوب مؤتة؛ لتأديب. شرحبيل الغسانى وقد حشد الروم للقاء المسلمين مائة ألف مقاتل، كما كان هناك مائة ألف أخرى من القبائل العربية المتنصرة[٣] ،ويرى بعض الباحثين أن هناك مبالغة فى عدم الروم وحلفائهم[٤]، وأيا كان الأمر فقد كان الروم وحلفاؤهم، أضعاف عدد المسلمين؛ لدرجة دفعت بعضهم إلى الإشارة بعدم القتال، حتى يكتبوا للنبى-صلى الله عليه وسلم- ولكن البعض الآخر، أشار بالقتال؛ لأن المسلمين لايحاربون عدوهم بعدد ولابعدة، ولكنهم يحاربون بالإيمان الذى يحملونه بين جوانحهم، وأنهم يسعون إلى الشهادة، فكيف يتركونها وقد واتتهم[٥] ؟

---

(١) معان بالفتح مدينة بطرف بادية الشام تلقاء الحجاز من ناحية البلقاء.الحموى: معجم البلدان جـ٥ ص١٥٣.

(٢) ابن حزم الاندلسى: على بن أحمد جوامع السيرة تحقيق د. إحسان عباس ود.ناصر الدين الأسد مجموعة تراث الإسلام القاهرة ص٠ ٢٢ وعن إسلام فروة انظر ابن هشام جـ٤ ص ١٧٣، ١٧٤ ولم يحدد تاريخ إسلامه، وذكر ابن الاثير إسلام فروة فى حوادث السنه العاشرة من الهجرة،وعلى ذلك فماحدث نتيجة لإسلامه ليس من أسباب غزوة مؤتة التى كانت فى السنة الثامنة من الهجرة. انظر ابن الاثير جـ٢ ص٢٠٣.

(٣) ابن هشام: السيرة جـ٣ ص٠ ٢٦٠.

(٤) سالم: د. السيد تاريخ الدوله العربية ص ١٣٣ حاشية (٢).

(٥) ابن هشام: السيرة جـ٣ من ص ٢٦٠-٢٦٦، الطبرى: جـ٣ من ص٣٧-٤٢.

وقد انتصر الرأى الأخير، وكان قبول المسلمين الوقوف أمام هذه الكثرة الهائلة، وصمودهم، من أروع الأمثلة فى الشجاعة والتضحية وقوة الإيمان، وقد اختلفت الروايات حول نتيجة هذه المعركة، فروايه ابن اسحاق- التى نقلها ابن هشام- أن خالدا انسحب بالجيش، بعد أن قتل القواد الثلاثه، زيد بن حارثه، وجعفر بن أبى طالب، وعبد الله بن رواحه، وقد نجح خالد فى تأمين الجيش خلال هذا الانسحاب، وقد حرص الرسول-صلى الله عليه وسلم- على ألا يؤثر ماحدث فى نفوس الجند، وعندما سمع من يطلق عليهم صفة الفرار، قال -عليه الصلاة والسلام- ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى[١].

وهناك روايات تشير إلى انتصار المسلمين، من ذلك ما نقله ابن هشام عن الزهرى[٢]، وما أورده ابن كثير عن الواقدى وموسى بن عقبة[٣]، وكل روايات هؤلاء تشير إلى انتصار المسلمين فى هذه الغزوة، وهزيمة الروم وأكد ابن كثير انتصار المسلمين فى هذه الغزوة، بما ورد فى صحيح البخارى، من أن الرسول -صلى الله عليه وسلم - قال- بعد مقتل القواد الثلاثة :(إن الراية أخذها سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليه)[٤].

---

(١) ابن هشام : جـ٣ من ص ٢٦٠ إلى ص ٢٦٦، الطبرى : جـ٣ من ص ٣٧ إلى ص ٤٢.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ ص٢٤٧.

(٤) البخارى: صحيح البخارى جـ٥ ص١٨٢.

وذهب بعض المؤرخين إلى أن فتح الله هنا، هو انقاذ الجيش الإسلامى، والعودة به سالما، وعلى رأس هؤلاء ابن اسحاق الذى ذكر أن إحاطة العدو بالمسلمين، وتكاثرهم عليهم، كانت كفيلة بالقضاء عليهم تماما، فلما تخلصوا منهم، كان ذلك غاية المرام فى هذا المقام، وهذا التأويل- كما قال ابن كثير- محتمل،ولكنه خلاف الظاهر من قوله صلى الله عليه وسلم (فتح الله عليه). =

وبما ورد قريبا من ذلك فى بعض كتب الحديث الأخرى، كالبيهقى والنسائى[١].

ولاشك أن اطلاق الرسول-صلى الله عليه وسلم- لقب سيف ألله على خالد، كان لما أبداه فى هذه المعركة من حسن القيادة والمهارة العسكرية، ومن جهة أخرى فاطلاق هذا اللقب على خالد فى هذه المعركه، دليل انتصار المسلمين فيها، لأن اطلاق مثل هذه الألقاب، انما يكون فى حالات الانتصار لا فى حالة الهزيمة والانكسار[٢].

وذكر ابن كثير- فى معرض تأكيده على انتصار المسلمين فى هذه المعركة- أن هؤلاء الذين أطلق عليهم صفة الفرار،وأنكر النبى-صلى الله عليه وسلم- إطلاق هذه الصفه عليهم، ليسوا كل الجيش، وإنما كانوا أفرادا معدودين، هالهم الكثرة المخيفه لاعدائهم، فغادروا الميدان[٣].

= وأكد ابن كثير ذلك، بالنصوص الصريحه التى نقلها الواقدى. ومنها أن الروم (انكشفوا منهزمين، وقتل المسلمين، منهم مقتله لم يقتلها قوم)، وبالنصوص التى نقلها موسى بن عقبه فى مغازيه، ومنها : (فهزم الله العدو، وأظهر المسلمين). ابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ ص٢٤٧، ٢٥٠.

(١) المصدر السابق ص ٢٤٦.

(٢) عبد القادر: د. عبد العزيز غنيم السيرة التحليلية مطبعة الحسين الإسلامية القاهرة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨مص١٩٨.

(٣) وليس هذا من الفرار المنهى عنه، والذى يدخل تحت التولى يوم الزحف، وهو من أكبر الكبائر، وإنما هو من الانحياز إلى فئة المؤمنين. قال الله تعالى :(ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئه فقد باء بغضب من الله ومأواه جنهم وبئس المصير)- سورة الأنفال آية (١٦).

ولذلك عندما سألهم النبى-صلى الله عليه وسلم- (من أنتم؟ وقالوا: نحن الفرارون، قال لهم: لا بل انتم الكرارون،وأنا فئتكم، وأنا فئة المؤمنين) ابن كثير البداية والنهاية جـ٤ ص٢٤٨.

وجمع ابن كثير بين رواية ابن اسحاق والروايات الأخرى، بأن خالدا عندما تولى القيادة، خلص المسلمين من أيدى اعدائهم أولا، ثم أعاد ترتيب الجيش، وتغييرنظامه، وهاجم الاعداء الذين ظنوا أن مدد الحق بالمسلمين- ثانيا- وتمكن من هزيمتهم(١).

والحقيقة أن وقوف هذا العدد القليل- حتى لوأخذنا بروايه ابن اسحاق- أمام الكثرة الطاغية، وما أبداه المسلمون من صنوف الاقدام والبسالة(٢)، والروح الإيمانية العالية،وانسحابهم بصورة مشرفة، وبدون خسائر كبيرة(٣)، يقلل كثيرا من قيمة الانتصار الذى أحرزه الروم، بل إن ابن اسحاق - نفسه- جعل ما أتمه المسلمون فى هذه المعركة، فتحا ونصرا؛ لأن كثرة العدو، وإحاطته بهم كانت كفيلة بالقضاء المبرم عليهم، فلما تخلصوا منهم، كان ذلك نجاحا ونصرا(٤).

كما أفقد هذا النصر قيمته- لو سلمنا أن هناك نصرا للروم- ما ترتب عليه، ونتج عنه، من إحجام الروم وأعوانهم عن متابعه المسلمين بعد المعركة، على الرغم من كثرتهم الواضحة، وقلة عدد المسلمين، وتوقف الروم عن مهاجمة

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أذكر فى هذا الصدد ما أوردته كتب السيره من أن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضى الله عنه، وما ورد من أن خالد بن الوليد قال: لقد دق فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفيحه يمانية.ابن هشام : السيرة جـ٣ ص١٦٣، البخارى: صحيح البخارى جـ٥ص١٨٣.

(٣) لم يزد الشهداء فى هذه المعركة عن اثنى عشر شهيدا، على أكثر تقدير. ابن هشام: السيرة جـ٣ ص ٢٧٠-٢٧١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ ص٢٥٠.

الحدود الاسلامية، وعدم تحرشهم بالمسلمين، حتى غزوة تبوك، ولعل ذلك يؤكد أن نتيجة المعركة، كانت فى صالح المسلمين.

وأخيراً لو أخذنا برواية القائلين بانتصار الروم فى مؤتة، فإن هذا الانتصار لايدل على تفوقهم فى موازين القوى بينهم وبين المسلمين؛ لأن المسلمين فوجئوا بهذا العدد الضخم من الروم وأعوانهم فى مؤتة، ولم يعدوا لهذا الأمر عدته، ومن جهة أخرى، فإن المسلمين- بعد شهر واحد من هذه المعركة- حاربوا جموع الروم ومتنصرة العرب فى ذات السلاسل، وذلك فى جمادى الآخرة من السنة الثامنة من الهجرة(٦٢٩م) [١]، وكان قائد جيش المسلمين عمرو بن العاص، وانتصر المسلمون، وشتتوا قوات أعدائهم [٢].

ومما يدل- أيضا- على أن موازين القوى لم تكن فى صالح الروم، وكانت فى صالح المسلمين، غزوة تبوك [٣]، فى العام التالى لغزوة مؤتة.

أما جمع الروم لهذا العدد الكبير من القوات فى مؤتة، فله - فى نظر البحث- ظروفه الخاصة، فقد تم ذلك فى عام الاحتفالات الكبرى بانتصارهم على الفرس، وفى هذا العام- ٦٢٩م/٨هـ [٤]- دخل (هرقل) بيت المقدس دخول الظافرين، وأعاد صليب الصلبوت، الذى كان الفرس قد انتزعوه، عندما استولوا على المدينة سنة ٦١٤م [٥].

---

(١) ابن هشام : جـ٤ ص٢٠١، الطبرى: جـ٣ ص٣١، ٣٢، المسعودى: التنبيه والإشراف مكتبة الهلال بيروت ١٩٨١م ص ٢٤٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ ص٢٧٣، ٢٧٤.

(٣) تبوك: موضع بين وادى القرى والشام، وهى بين جبل حسمى وجبل شرورى، وحسمى في غربيها، وشرورى فى شرقيها. الحموى جـ٢ ص١٤.

(٤) هسى: العالم البيزنطى ص١٢٣، بتلر: د. ألفريد. فتح العرب لمصر-١ ص١١٦.

(٥) هسى المرجع السابق، بتلر: المرجع السابق من ص١١٦-١١٩.

وصاحب هذه الاحتفالات، حماس شديد، وحمية دينية قوية، وتأثر كبير بلغ حد بكاء الجميع، وفى هذا الجو المشحون بالعواطف الدينية،والانفعالات، كان تقدم جيش المسلمين إلى مؤتة[١]، فكان من الميسور- وسط هذا الجو- جمع الجند الكثير، وتوجيههم لضرب المسلمين، فى وقت لم تكن العواقب السيئة لحروبهم مع الفرس قد ظهرت بعد.

٢) غزوة تبوك

كانت هذه الغزوة سنة تسع من الهجرة (٦٣٠م)، وذكر البلاذرى في سبب هذه الغزوة، أن الرسول-صلى الله عليه وسلم- بلغه تجمع الروم، وبعض القبائل المتحالفة معهم فى تبوك؛ للكيد للمسلمين، فأمر بإعداد جيش لحربهم، على الرغم من أن الوقت كان وقت عسر وضيق وحر شديد، وفاق هذا الجيش فى عدده، الجيوش السابقة التى أرسلت إلى شمال الحجاز؛ إذ كان عدده يزيد على ثلاثين ألفا، وعرف هذا الجيش بجيش العسرة، نظرا للظروف القاسية التى تم إعداده فيها، ولما وصل هذا الجيش إلى تبوك، لم يجد أحدا، وصالحه أهل تبوك على الجزية[٢].

ومن المحتمل أن يكون وصول الجيش السريع، أربك الروم وأعوانهم؛ فقد ظنوا المسلمين- فى هذا الحر الشديد والظروف العصبية- لن يقدموا على حربهم بهذه السرعة،ولم يتوقعوا أن يقبل هذا العدد الضخم من المسلمين، فآثروا الانسحاب، وبخاصة بعدما رأوا بسالة المسلمين وإقدامهم فى مؤتة وغيرها،

---

(١) بتلر: المرجع السابق ص ١٢٨.

(٢) البلاذرى: أبو الحسن أحمد بن يحيى. فتوح البلدان.دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ص٧١، وانظر ابن هشام: السيرة جـ٤ ص١٠٨.

وهذا ما أشار إليه البلاذرى؛ حيث ذكر أنه عندما سار الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلى تبوك، هاب محاربته الأعداء، فلم يلق منهم كيدا، وأن رسل هرقل أتته- وهو بتبوك- فكساهم وردهم(١).

والحقيقة أن رد فعل الروم وأعوانهم، تجاه خروج المسلمين إلى تبوك، تجعلنا نتردد كثيرا فى قبول رواية تجمع الروم وحلفائهم لقتال المسلمين،وأن ذلك كان سبب غزوة تبوك، ومن جهة أخرى، فالظروف السيئة التى كانت تمر بها دولة الروم، بعد حروبها مع الفرس- وقد سبق الحديث عنها- لم تكن تسمح لها القيام بعمل عسكرى.

ويضاف إلى ذلك،أن بعض المؤرخين الكبار، كابن هشام والطبرى والمسعودى(٢)، لم يتعرضوا - عند حديثهم عن هذه الغزوة- لذكر تجمع الروم وحلفائهم، مما يدل على أن ذلك لم يثبت عندهم، وكان خروج المسلمين فى هذه الغزوة- عندهم- فى إطار الدعوة إلى الإسلام، والتمكين له فى الأرض، وكان هذا- وحده- سببا كافيا للقيام بهذه الغزوة، وقد ذكر ابن كثير ذلك صراحة، فى بداية حديثه عن هذه الغزوة(٣).

---

(١) البلاذرى: أنساب الاشراف جـ١ ص٣٦٨.

(٢) ابن هشام: السيرة جـ٤ ص١٠٨، الطبرى : جـ٣ ص١٠١، المسعودى: التنبيه والإشراف ص٢٥١.

(٣) وقد صدر حديثه عنها بالآيتين الكريمتين:
(يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلايقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا، وإن خفتم عيله فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم.قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولايحرمون ما حرم الله ورسوله، ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) {التوبة الآيتان (٢٨)، (٢٩)} =

وإذا كان الهدف من خروج المسلمين فى هذه الغزوة، الدعوة للاسلام، كان ذلك دليلا على ثقتهم بأنفسهم، وإيمانهم بالقدرة على تحقيق هذا الهدف، وكان- أيضا- دليلا على تفوقهم فى موازين القوى بينهم وبين الروم، ومما يؤكد ذلك، أن الرسول-صلى الله عليه وسلم- ما إن أقام بتبوك حتى بعث إلى (هرقل) يدعوه إلى الإسلام، وكان مقيما- آنئذ- بحمص، وقيل دمشق[١]، وليس بينهما سوى عدة أميال.

وفى أثناء إقامته -صلى الله عليه وسلم- بتبوك[٢]- عقد معاهدات مع سكان الحدود بين الجزيرة العربية والشام،وكتب بذلك كتبا لصاحب أيلة[٣]،

= وقال ابن كثير: (إن الآية الثانية تدعو إلى قتال أهل الكتاب، حتى يسلموا أو يعطوا الجزية، وفى ذلك تعويض قريش عما فاتها من تجارة، كانت فى موسم الحج، بعد أن منع المشركون من قربان المسجد الحرام، وقد عزم الرسول-صلى الله عليه وسلم- على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق، لقربهم من الإسلام وأهله، وقد قال الله -تعالى-:(يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار، وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) (التوبة الآية -١٢٣) البداية والنهاية جـ٥ ص٢.

(١) المسعودى: التنبيه والإشراف ص٢٥٢، ابن كثير: البداية والنهاية جـ٥ ص١٥.

(٢) ذكر ابن هشام أنه- صلى الله عليه وسلم- أقام بتبوك بضع عشرة ليله لم يجاوزها. السيرة جـ٤ ص١١٨ بينما ذكر الواقدى أنه-صلى الله عليه وسلم- أنه أقام شهرين. مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ص٣٤١، وطول الإقامة دليل الثقة بالنفس والقوة.

(٣) أيلة مدينة بين الفسطاط ومكة على شاطئ بحر القلزم، سميت بأيلة بنت مدين بن إبراهيم عليه السلام. الحموى : جـ١ ص٢٩٢.

وأهل جرباء[١]، وأذرح[٢]، ومقنا[٣] ودومة الجندل على الأمان ودفع الجزية[٤]، وبذلك خضع شمال الحجاز والبادية لدولة الاسلام،وكان وصول النفوذ الإسلامى لهذه المناطق، المجاورة للمناطق الخاضعة للنفوذ الرومى،والموقف السلبى للروم، دليلا آخر على التفوق الاسلامى فى موازين القوى مع الروم.

٣) مابعد غزوة تبوك

كانت آخر سرية خرجت إلى بلاد الشام- حيث النفوذ الرومى- فى عهد النبى- صلى الله عليه وسلم- تلك السرية التى ذهبت إلى (يبنى وأزدود) من أرض فلسطين من بلاد الشام، وذلك سنة ١٠هـ (٦٣١م) وكان قائد هذه السرية أسامة بن زيد[٥].

---

(١) جرباء: موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام، قرب جبل السراة من ناحية الحجاز. الحموى: جـ٢ ص١١٨.

(٢) أذرح: بلد فى أطراف الشام من أعمال الشراه، ثم من نواحى البلقاء. الحموى : جـ١ ص١٢٩.

(٣) مقنا: بلد قرب أيلة. الحموى: جـ٥ ص١٧٨.

(٤) ابن هشام : جـ٤ ص١١٧، ١١٨، البلاذرى: فتوح البلدان ص٧١، ولعل هذا- فى نظر البحث- أغنى الرسول- صلى الله عليه وسلم- عن ترك جزء من قواته فى هذه المناطق لإثبات النفوذ والسيادة، التى لم تكن مقصوده لذاتها فى تلك الفترة المباركة، وانما الهدف منها التمكين لدين الله فى الأرض ونشره.
بالإضافة إلى ذلك، كانت الدولة الاسلامية فى بدايتها الأولى، ولم تكن من عادتها أن تنثر قواتها كحاميات فى مناطق متفرقة، فضلا عن ظروف الدولة الاسلامية الخاصة، وحاجتها لمثل هذه القوات فى مهام أخرى تنتظرها، وكان ذلك أولى- لديها فى هذه الآونه- من بقاء هذه القوات فى مناطق بعيدة، لم يتهيأ الجند الاسلامى للإقامة فيها.

(٥) المسعودى: التنبيه والاشراف ص٢٥٤.

وقبل انتقال الرسول-صلى الله عليه وسلم- إلى الرفيق الأعلى، اختار أسامة بن زيد- أيضا- لقياده الجيش المتجه إلى بلاد البلقاء وأذرعات والداروم ومؤتة من أرض فلسطين من الشام(١)، وكان الغرض من هذه الحملة، التمكين للدعوة الإسلامية، ونشر الإسلام، والثأر لشهداء المسلمين في مؤتة،وتأديب الغساسنة والعرب المتنصرين والروم، ولم تخرج سرية أسامة فى عهد النبى- صلى الله عليه وسلم- وإنما خرجت فى خلافة أبى بكر- رضى الله عنه- وعادت بعد أن حققت أغراضها، سالمة غانمة(٢).

وبهذا ظهر لنا، أن الاحتكاكات الحربية بين المسلمين والروم، بعد غزوة مؤتة وحتى وفاة النبى-صلى الله عليه وسلم- تؤكد تفوق المسلمين فى موازين القوى على الروم فى هذه الفترة.

ومما يؤكد هذا التفوق- أيضا- مايلى :

ا) ان المناوشات بين المسلمين والروم، فى عهد النبى -صلى الله عليه وسلم- كان الجانب الاسلامى هو البادئ بإرسال الجيوش، التى تقدمت نحو الشام وتخومها، بينما لم يتقدم الروم أو حلفاؤهم ناحية المدينة أوالحجاز، وليست الطبيعة الصحراوية القاسيه هى العائق وحدها، فعبور هذه الصحراوات صعب، ولكنه غير مستحيل، ثم إنه كان من حلفائهم العرب من يمكنهم أن يقدموا لهم المساعدة، أو يقوموا عنهم بذلك العمل.

ب) لم يصدر عن دولة الروم أى رد فعل قوى، إزاء تحركات المسلمين على أطراف الشام منذ غزوة مؤتة، وقد تقدم جيش المسلمين إلى تبوك،

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ٤ ص١٨٦، المسعودى: التنبيه والإشراف ص٢٥٧.

(٢) الطبرى : جـ٣ من ص ٢٢٥-٢٢٧.

وأقاموا بها بضعة عشر يوما فى رواية[١]، وشهرين فى رواية أخرى[٢]، وفى هذه الإقامة مافيها من التحدى.

جـ) فى غزوة تبوك، لم يكتف المسلمون بمجرد الإقامة فى تبوك، بل كانوا يعملون على تثبيت نفوذهم فى هذه المنطقة من تبوك وماحولها، بعقد المعاهدات مع أهلها، واستخدموا القوة العسكرية لتحقيق ذلك مع دومة الجندل، الذى أرسل النبى-صلى الله عليه وسلم- إليها سرية بقيادة خالد بن الوليد، أجبرت ملكها على الدخول فى عهد المسلمين[٣]، ويدعى (أكيدر بن عبد الملك) وكان نصرانيا وله صلات بالروم، وهذا خير دليل على ضعف دولة الروم أمام المسلمين، فالدولة القوية ترفض أن تزاحمها دولة أخرى، فى منطقة نفوذها أو ما اقترب منها.

د) وفى تبوك- أيضا- كانت دعوة (هرقل) إلى الاسلام، أكثر دلالة على ضعف دولة الروم، واذا كان الرسول-صلى الله عليه وسلم- بدعوته هرقل إلي الإسلام، ينفذ أمرا دينيا، ولايبغى من وراء ذلك عائدا ماليا أو سياسيا أو غير ذلك من أمور الدنيا؛ فإنه من وجهة النظر غير الإسلامية تعنى هذه الدعوة التبعية والخضوع، ولذلك عندما دعا هرقل قومه للإسلام- كما ذكر الطبرى- قالوا له :(نحن نكون تحت يدى العرب، ونحن أعظم الناس ملكا)[٤]، ومن وجهة النظر هذه، كان تصرف كسرى ملك الفرس الغاضب تجاه رسالة النبى-صلى الله عليه وسلم- والتى سبق الحديث عنها.

---

(١) ابن هشام: السيرة جـ٤ ص١١٨.

(٢) الواقدى: مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم ص٣٤١.

(٣) ابن هشام : جـ٤ ص١١٧، ١١٨، الطبرى : جـ٣ ص١٠٨، ١٠٩.

(٤) الطبرى: جـ٢ ص٦٥١، ابن كثير: البداية والنهاية جـ٥ ص١٥.

وختاما، فقد أبان البحث عن ميل (هرقل) امبراطور الروم، إلى الاسلام بعد رسالة النبى -صلى الله عليه وسلم- إليه الأولى- اعتمادا على المصادر الإسلامية- ولكنه لم يدخل الإسلام- كما أشارت تلك المصادر- خوفا على ملكه أن يضيع منه، وخوفا على نفسه، وقد ساق البحث من الأدلة ما أوضح هذا الميل وأكده.

وقد برر البحث تراخى هرقل عن الرد على أعمال المسلمين العسكرية ضده بأحد أمرين :

الأول: ميله إلى الاسلام، **والثانى** الآثار السلبية لحرب الروم الطويلة مع الفرس، وبخاصة فى الناحية العسكرية، وقد أدى تراخى هرقل فى مجابهة المسلمين عسكريا إلى تأكيد وضع قائم بالفعل، وهو تفوق المسلمين على الروم فى موازين القوى.

وأظهر البحث أن الاحتكاكات الحربية بين الطرفين الاسلامى والرومى، أكدت- كذلك- التفوق الإسلامى، ابتداءمن غزوة مؤتة، التى أثبت البحث- بالنصوص التاريخية والأدلة العقلية- أنها كانت تفوقا للجانب الإسلامى، كما كانت تبوك ومابعدها من تحركات عسكرية تأكيدا واضحا على التفوق الإسلامى.

ومن الممكن-أيضا- اعتبار دعوة هرقل إلى الإسلام، من الأدلة على التفوق الإسلامى، وبخاصة عندما وجه النبى-صلى الله عليه وسلم- له هذه الدعوة وهو فى تبوك، فهذه الدعوة، وإن كانت دينية خالصة لوجه الله تعالى، فإنها من وجهة نظر أخرى، كانت تعنى الدعوة إلى التبعية والخضوع.

هذا وبالله التوفيق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

أولاً: المصادر :

ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد (ت ٦٣٠هـ)

١- الكامل فى التاريخ. دار الفكر بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

البخارى : أبو عبد الله محمد بن اسماعيل (ت٢٥٦هـ)

٢- صحيح البخارى. كتاب الشعب (٥٧) مطابع الشعب القاهرة ١٣٧٨هـ.

البلاذرى: أبو الحسن أحمد بن يحيى (ت٢٧٩هـ/٨٩٢م)

٣- فتوح البلدان. دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م

٤- أنساب الأشراف تحقيق د. محمد حميد الله معهد المخطوطات العربية ودار المعارف القاهرة ١٩٥٩م.

ابن حزم: على بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)

٥- جوامع السيرة تحقيق د. إحسان عباس ود. ناصر الدين الأسد. مجموعة تراث الإسلام القاهرة.

الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦هـ/٢٢٨م)

٦- معجم البلدان. دار إحياء التراث العربى. بيروت بدون تاريخ.

ابن سعد: أبو عبد الله محمد (ت٢٣٠هـ)

٧- الطبقات الكبرى. القاهرة ١٩٦٨م.

الطبرى: أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد (ت٣١٠هـ/٩٢٢م)

٨- تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة الثانية دار المعارف القاهرة ١٩٧٦م.

القزوينى: زكريا بن محمد

٩- آثار البلاد وأخبار العباد.دار صادر بيروت بدون تاريخ.

ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ)

١٠- البداية والنهاية. الطبعة الأولى. دار الفكر العربى القاهرة ١٣٥١هـ/١٩٣٣م.

المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ)

١١- التنبيه والإشراف. دار التراث بيروت ١٩٦٨م.

ونسخة أخرى دار الهلال بيروت ١٩٨١م.

المقرى الفيومى: أحمد بن محمد بن على (ت ٧٧٠هـ)

١٢- المصباح المنير. الطبعة الأولى المطبعة العلمية القاهرة ١٣١٥هـ

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ)

١٣- نهاية الأرب فى فنون الأدب جـ١ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب. وزارة الثقافة والارشاد القومى القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م.

ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام (ت ٢١٣هـ)

١٤- السيرة. تحقيق د. محمد فهمى السرجانى. المكتبة التوفيقية القاهرة بدون تاريخ

الواقدى: أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ)

١٥- مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم. الطبعة الأولى القاهرة ١٩٤٨م.

اليعقوبى: أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ)

١٦- تاريخ اليعقوبى. دار صادر. بيروت. بدون تاريخ.

ثانياً: المراجع :

أمين: د. أحمد أمين

١٧- فجر الإسلام. الطبعة العاشرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م.

بتلر: د. ألفريد .ج

١٨- فتح العرب لمصر ترجمة محمد فريد أبو حديد تاريخ المصريين (١٧) الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩م.

سالم: د. السيد عبد العزيز

١٩- تاريخ الدولة العربية. مؤسسة الثقافة الجامعية الاسكندرية ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م

عاشور: د. سعيد عبد الفتاح

٢٠- أوربا العصور الوسطى. الطبعة الأولى مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٨م.

عبد القادر: د. عبد العزيز غنيم

٢١- السيرة التحليلية مطبعة الحسين الإسلامية القاهرة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

لويس: أرشيبالد.ر

٢٢- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط. ترجمة أحمد محمد عيسى. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ١٩٥٦م.

هسى: ج.م.

٢٣- العالم البيزنطى ترجمة د. رأفت عبد الحميد الطبعة الثانية. دار المعارف- القاهرة ١٩٨٢م.

يوسف: د. جوزيف نسيم

٢٤- تاريخ الدولة البيزنطية. دار المعرفة الجامعية الاسكندرية ١٩٨٨م.

٢٥- الاسلام والمسيحيه. دار الفكر الجامعى. الطبعة الأولى الاسكندرية ١٩٨٦م.

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بإيتاى البارود

الأستاذ الدكتور/ إبراهيم أنيس
آراؤه البلاغية تحليل ونقد

إعداد
د/ سلامه جمعه داود
مدرس فى قسم البلاغة والنقد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أوتى جوامع الكلم، فكان أفصح العرب لسانا، وأحسنهم بيانا، وأفضلهم منطقا، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وبعـــــد،،

فإنه لم يلق علم من علوم العربية من ظلم أهله له واستخفافهم به مثل مالقى علم البلاغة، وليس هذا فى عصرنا فحسب، بل كان هذا هو الطابع الغالب على كثير من القرون الماضية، حتى صرف كثير من الناس عن البحث فى أسرار البلاغة من أبواب كثيرة وبسبل شتى، قال الإمام عبد القاهر: «إنك لن ترى - على ذلك - نوعا من العلم قد لَقِىَ من الضَّيْمِ مالقِيَه، ومُنِىَ من الحَيْفِ بما مُنِىَ به، ودخل على الناس من الغلط فى معناه مادخل عليهم فيه»[1]، وقال العلوى عن هذا العلم إنه «لما فيه من الغموض ودقة الرموز، واحتوائه على الأسرار والكنوز، استولت عليه يَدُ النسيان والذهول، وآلت نجومُه وشموسُه إلى الانكساف والأفول، ولم يختص بإحرازه من العلماء إلا واحد بعد واحد، وطالما قيل «إذا عَظُمَ المطلوبُ قَلَّ المُسَاعد»، وما ذاك إلا لقصور الهمم عن بلوغ غاياته، وعجزها عن إدراكه والوصول إلى نهاياته»[2].

---

(١) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى : ص٦ بتحقيق الأستاذ العلامة / محمود محمد شاكر . نشر مكتبة الخانجى بالقاهرة.

(٢) كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم الإعجاز للإمام يحيى بن حمزة العلوى: ص٣ ، ٤ ط / دار الكتب العلمية ط / أولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م طبعة كاملة فى مجلد واحد.

وفى عصرنا الحديث كثرت ألسنة القادحين فى البلاغة العربية خاصة وفى علوم اللغة عامة، ولم يصدر هذا القدح من عامة الناس فقط، بل صدر من كثير من خاصتهم، حتى صارت الاستهانة بالبلاغة وبعلوم اللغة بضاعة رائجة فى كل سوق، وسلعة متداولة فى كل محفل، **«والاستهانة داء وبيل يطمس الطرق المؤدية إلى العلم والفهم»**[1].

ولم يعد غريبا فى هذا العصر أن نسمع المعابة والطعن فى البلاغة العربية من نفرمنالأساتذة الذين لكلامهم فى نفوس كثير من طلاب العلم الأثر النافذ، والتسليم المطلق، والسمع والطاعة، مع الرضا والقناعة، وتلك آفة مايمكن أن يبتلى به علم من العلوم، أو أمة من الأمم!

ومن هنا وجب مراجعة كثير مما كتبه الأعلام فى عصرنا الحديث، مراجعة لاتتحسس الأخطاء بغرض الشهرة وذيوع الصيت ونباهة الذكر ، بل بقصد الأمانة العلمية ، والدفاع الحر، والنقد العلمى السديد الذى ينسب الحق إلى أصحابه، ويكشف عن قيمة العمل بأمانة وتجرد.

وهذه التنبيهات التى تقوم حركة العلم، ضرورة لايستقيم العلم إلا بها، وهى المنهج الذى درج عليه علماء هذه الأمة فى تأسيس علومهم، فما من عصر من العصور أو علم من العلوم إلا وفيه كتب مفردة تعالج هذا الجانب الخطير، وتحفظ للعلم أمانته التى استودعها الله ضمائر العلماء.

والدكتور/ إبراهيم أنيس = (كان أستاذا كبيرا بكلية دار العلوم، وعميدا لها، وعضوا بارزاً فى مجمع اللغة العربية لفترة طويلة تزيد على عشرين سنة) = علم من أعلام الثقافة العربية فى العصر الحديث ، كانت

---

(١) مقدمة تحقيق الأستاذ/ محمود محمد شاكر لكتاب أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى : ٢١ مطبعة المدنى ط/ أولى ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

له كثير من الآراء فى الدراسات اللغوية، وله فى نفوس أهل العلم مكانة كبيرة، ولا أدل على ذلك من كلمة قالها الأديب الكبير الأستاذ/ عباس محمود العقاد تشهد للدكتور إبراهيم بالنبوغ والبراعة، قال العقاد: **«إنى دائما أتتبع بحوث الدكتور إبراهيم أنيس؛ لأنها من نوع جديد فى اللغة العربية»**(١).

وكان الدكتور إبراهيم - رحمه الله - من المبرزين من علماء عصره فى علم اللغة وأصواتها ومعاجمها ولهجاتها، وترك فى هذا الميدان تراثاً علمياً كبيراً، أثنى عليه أهل ذلك العلم، وانتفع به الباحثون وقدروه حق قدره .

ومن أكثر مؤلفات الدكتور شيوعا وذكراً كتابه **«من أسرار اللغة»** ، ومع هذه الشهرة التى حظى بها الكتاب إلا أننى وجدت فيه كثيرا من الآراء فى النحو والبلاغة تحتاج إلى نظر، لما فيها من هجوم شنيع على علماء هذين العلمين الشريفين .

والحق أنى عجبت أشد العجب مما قرأته فى هذا الكتاب، وكثرت الأسئلة فى نفسى، كيف يقول الدكتور إبراهيم هذا - وهو من هو شهرة ومكانة فى المحافل العلمية.

على أن هذه الآراء والاجتهادات أثارت حمية كثير من أهل العلم فى مصر، فرد عليه الدكتور/ محمد حسن جبل (عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة) بعض آرائه فى اللغة والنحو فى كتاب رائع بعنوان : «أصالة الإعراب ودلالته على المعانى فى اللغة العربية»(٢).

---

(١) محاضر جلسات المجمع فى الدورة العشرين: ص ٤٢٥ بإشراف أ/ محمد شوقى أمين، عضو المجمع ط/ المطابع الأميرية ١٩٧٨م.

(٢) ينظر أصالة الإعراب ودلالته على المعانى فى اللغة العربية د/ محمد حسن جبل، ط/ مطبعة التركى بطنطا ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

وبقيت الآراء البلاغية التى نشرها الدكتور/ إبراهيم فى هذا الكتاب دون أن يتعرض للرد عليها أحد- فيما أعلم- اللهم إلا وقفات عجلى، فى مؤلفات بعض المعاصرين من علماء البلاغة، ومنهاتلك الصفحات المضيئة لتى كتبها شيخنا الأستاذ الدكتور/ محمد أبو موسى فى الرد على رأى الدكتور/ إبراهيم الذى أنكر فيه دلالة النفى والاستثناء و «إنما» على القصر(١).

ومنها تلك الوقفة البلاغية اللطيفة التى صوب فيها شيخنا الأستاذ الدكتور/ صباح عبيد دراز رأى الدكتور إبراهيم الذى يذهب فيه إلى أن الجملة الخبرية المنفية فى قوة نقيضها المثبت، فقولك : أنت لاتكذب - فى رأى الدكتور إبراهيم - فى قوة قولك : أنت تصدق(٢).

أما بقية هذه (الآراء البلاغية) التى أثارها كتاب «من أسرار اللغة» فلم أقف لأحد فيها على شئ، ولذا عزمت على جمعها وتحريرها، ونقد مايخالف منها أصول البلاغيين ومقرراتهم .

وفى هذا البحث الصغير أوجزت الآراء البلاغية الجديدة للدكتور/ إبراهيم أنيس فى أحد عشر رأياً، حللتها وبينت مواضع السهو فيها، مع اعترافى له بسابق فضله، ورسوخ قدمه، وسعة علمه، وجزيل عطائه في خدمة العربية، والدفاع عنها، والتنقيب فى كنوزها إلى آخر لحظة من عمره.

---

(١) ينظر دلالات التراكيب د. محمد أبو موسى : ص١٣٠ - ١٣٨، ص ١٦٢ - ١٦٥، ط. دار التضامن ، ط. ثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، نشر مكتبة وهبة.

(٢) ينظر دراسات بلاغية د. صباح عبيد دراز : ص ٢٣٥ ، ط . عام ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يرزقنا السداد فى القول والعمل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد النبى العربى الكريم، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الجمعة ٢ رجب ١٤١٩هـ — **سلامه جمعه على داود**

٢٣ أكتوبر ١٩٩٨م — مدرس فى قسم البلاغة والنقد

* * * * * * * * * * * * *

تمهيد

الدكتور / إبراهيم أنيس *

(١٩٠٦-١٩٧٧م)

ولد الدكتور إبراهيم أنيس فى القاهرة عام ١٩٠٦م، فلما بلغ المدرسة التجهيزية التى كانت ملحقة بدار العلوم دخلها، وأتم الدراسة فيها، ثم دخل دار العلوم، وتخرج بها عام ١٩٣٠، وتولى التدريس فى بعض المدارس الثانوية، ثم كانت مسابقة دعت إليها وزارة المعارف لاختيار بعثة دراسية إلى أوربا، فاستبق فيها مع المستبقين، وفاز بالبعثة إلى إنجلترا.

وفيما بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٤١ حصل من جامعة لندن على درجتى (بكالوريوس الشرف فى الآداب، ثم دكتواه الفلسفة فى الدراسات اللغوية والسامية)، وفى (لندن) أكبر أعضاء النادى المصرى شخصه، وقدروا مواهبه فانتخبوه رئيسا لناديهم، يدير أعماله وشئونه. وعاد إلى مصر فحاضر فى «دار العلوم» ثم فى «كلية الآداب بجامعة الإسكندرية»، ثم عاد بعد سنتين إلى «دار العلوم»، واستقر بها حتى صار أستاذا فيها، ثم عميدا لها عام ١٩٥٥، ثم عاد عميدا لها عام ١٩٥٨. وفى هذا العام أختير خبيرا فى المجمع، ثم عضوا من أعضائه عام ١٩٦١. وقد لبث نحو عشرين عاما يشارك مشاركة فعالة فى أعمال المجمع ولجانه، ولم يفت المجمع أن يرشحه لجائزة الدولة التقديرية، فظفر بها.

وقد خلص الدكتور / إبراهيم من جولاته فى اللغة بآراء وتفسيرات محدثة وافق عليها من وافق، وخالف فيها من خالف، وكان كثير المراجعة لما كتب، يعيد النظر فيه كلما أعاد طباعته، فيغير ويبدل، ولايزال شيء

(*) هذه الترجمة مختصرة من الكلمة التى ألقاها فى حفل تأبينه زميله عضو المجمع الأستاذ / على النجدى ناصف ونشرت فى مجلة المجمع : جـ ٤٠ ص ١٩٩-٢٠٥.

مما قدر له الاستقرار يحتاج إلى مراجعة ناقدة، ومن يدرى لعله لو نسأل الله فى عمره لجعله منه على بال، ولعدل فيه رأيه...

ونقل الدكتور/ إبراهيم إلى جوار ربه إثر حادث أليم، وكانت وفاته فى اليوم الثامن من شهر يونيه عام ١٩٧٧. (انتهى المختصر من كلام الأستاذ / على النجدى ناصف فى مجلة المجمع : جـ٤٠ ص ١٩٩-٢٠٥).

وقال الدكتور عبد الله درويش -العميد الأسبق لكلية دار العلوم- فى حفل تأبينه بالمجمع[1]:

يَعِزُّ عَلَيَّ حين أُجِيلُ عَينِي ... أُقَلِّبُ فى مكانِك لا أراكا
لقد رُوِّعْتُ لَيلَةَ دَقَّ نَاعٍ ... يُسائِلُنى: أتدري ما دهاكا
هَتَفْتُ بصاحِبِى: خَطْبٌ جَلِيلٌ ... أبى وأبوك قد لَقِىَ الهلاكا
على وَضَحِ الثَّرَى أرداهُ غِرٌّ ... جَبَانٌ، لَيتَنا كُنَّا فِداكا
لقد حَمَلُوكَ ما عَرَفُوا مداكا ... ولم يَدْرِ الأحِبَّةُ ما دهاكا
فَزِعْنَا نَرْقُبُ الجَسَدَ المُسَجَّى ... نُمَلِّى نَظْرَةً منه هناكا
فما كِدْنَا نُصَدِّقُ ما نَراه ... وأن الموتَ قد ألقى الشباكا
لقد كُنتَ العَزُوفَ عن الدَّنَايا ... وكُنتَ مُسَالِماً مَنْ ذا جفاكا
ولم يُبْهِرْكَ فى الدنيا ضِيَاءٌ ... وكان صَدَى الحقيقةِ مُبْتَغَاكا
بكاك الخالدون شَجَىً وحُزْناً ... و«دَارُ العِلمِ» أشجى مَنْ بكاكا

مؤلفاته:

كان الدكتور إبراهيم أنيس فى حياته العلمية فى غاية من النشاط والجد، فقد عكف على العلم، وقرأ كثيرا، وكتب كثيرا، وشهد له بذلك المقربون إليه من أهله وخاصته، فصور لنا شقيقه الدكتور/ عبد العظيم أنيس مدى شغفة بالعلم، وإقباله عليه، وتفرغه له، قال : «ولست أذكر أننى ذهبت

---

(١) مجلة المجمع : جـ٤ ص ٢٠٧.

مرة لزيارته دون موعد، ولم أجده جالسا على مكتبه، مكبا على مراجعه، أو مراجعاً لشئ يكتبه، وكنت أحيانا أشفق عليه من هذا الإرهاق الذى يصر عليه، حتى وهو مريض، وعندما كنت أراجعه فى هذا كان يقول مبتسما: (إن هذا العمل هو حياتى الآن)، وعندما أصابه المرض منذ أكثر من عامين - قبل وفاته- ظل يواظب على التردد على مركز الحاسب العلمى بجامعة القاهرة (معهد الإحصاء) على مافى هذا من مشقة وعناء؛ تشوقا إلى معرفة نتائج الجداول اللغوية التى كان يخرجها الحاسب العلمى- الكمبيوتر- له»[1].

وقد وقفت للدكتور/ إبراهيم أنيس على ثمانية كتب مطبوعة، أعيد طبع بعضها أكثر من عشر طبعات، وهذه الكتب قرأها وتربى عليها كثير من الباحثين، ليس فى مصر وحدها، بل فى العالم العربى كله.

وأكتفى هنا بالإشارة إلى أسماء هذه المؤلفات :

١- كتاب من أسرار اللغة : وهو أكثر كتبه ذيوعا وشهرة.

٢- كتاب دلالة الألفاظ.

٣- كتاب فى اللهجات العربية.

٤- كتاب اللغة بين القومية والعالمية.

٥- كتاب الأصوات اللغوية.

٦- كتاب موسيقى الشعر.

٧- كتاب مستقبل اللغة العربية المشتركة.

٨- كتاب الموجز الواضح فى تاريخ العرب والإسلام، ألفه الدكتور بالاشتراك مع مجموعة من المؤلفين.

---

(١) مجلة المجمع : جـ٤٠ ص ٢١٠.

كما اشترك الدكتور فى إصدار المعاجم الثلاثة التى أخرجها مجمع اللغة العربية، وهى : المعجم الكبير، والمعجم الوسيط، والمعجم الوجيز، صدر الأولان فى حياته والأخير بعد وفاته[١].

وقد وقفت للدكتور على (خمسة وثلاثين بحثا) ألقاها فى مجمع اللغة العربية،[٢]، تقرب إذا جمعت- وحدها- من مائتى صفحة من القطع الكبير، فيها كثير من الآراء والاجتهادات.

---

(١) مجلة المجمع : جـ٤٠ ص ١٩٨.

(٢) يراجع التراث المجمعى فى خمسين عاما (١٩٣٤-١٩٨٤م) للأستاذ/ إبراهيم الترزى المدير العام ورئيس تحرير مجلة المجمع.

آراؤه البلاغية: تحليل ونقد

شن الدكتور/إبراهيم فى كتابه «من أسرار اللغة» على البلاغيين هجوما عنيفا، واتهم الإمام عبد القاهر الجرجانى ومن بعده من علماء البلاغة بكثير من التهم.

وفى الصفحات التالية وقفات مع هذه الآراء البلاغية التى ذهب إليها الدكتور.

وقد أوجزت هذه الآراء الجديدة فى أحد عشر رأياً:

أولاً: ملاحظاته على الإمام عبد القاهر الجرجانى:

فى حديث الدكتور عن نظام الجملة فى الكلام العربى وجه عدة ملاحظات ينقد فيها منهج الإمام:

قال الدكتور: **(ونلاحظ على عبد القاهر فى علاجه لتنظيم الكلام أموراً :**

١- ميله على طريقة المتكلمين إلى الجدل المنطقى الفلسفى، ومحاولته التقريب بين أساليب الكلام والمنطق العقلى العام؛ ولذلك أكثر من التمثيل بعبارات من صنعه لانكاد نرى لها شواهد فيما روى لها من اللغة)[1].

وهذه الملاحظة فيها نظر؛ لأن الإمام «لم يجادل فى كتابه جدلا منطقيا، وإنما كان جدلا يعتمد على الذوق؛ لأنه يؤمن بأن الذوق هو الحكم فى البلاغة»[2].

---

(١) من أسرار اللغة د/ ابراهيم أنيس: ص ٣٠٣ مكتبة الأنجلو المصرية ط. رابعة ١٩٧٢.

(٢) عبد القاهر الجرجانى د/أحمد بدوى: ص ٣٩٥ سلسلة أعلام العرب ط/وزارة الثقافة.

وهذا ظاهر فى كتابيه ظهوراً لايكاد يخفى، ولنقرأ أى باب من أبواب الكتابين؛ لنرى (ذوق) عبد القاهر البلاغى، وحسه المرهف، وعبقريته فى الغوص وراء الأسرار، واستنطاق الشواهد بما تكنه فى ضمائرها، وتحجبه وراء تراكيبها وألفاظها وأصواتها.

ومن شواهد ذلك- والاختيار صعب- تحليله الرائع لبيت لابن المعتز، استشهد به على بلاغة التفصيل والاستقصاء فى التشبيه، قال : «ومن أبلغ الاستقصاء وعجيبه قول ابن المعتز :

كأنَّ وضَوْءُ الصُّبحِ يَستعجِلُ الدُّجَى نُطِيرُ غُرَاباً ذا قَوَادِمَ جُونِ

شبه ظلام الليل حين يظهر فيه الصبح بأشخاص الغربان، ثم شرط أن تكون قوادم ريشها بيضا، لأن تلك الفِرَقَ من الظلمة تقع فى حواشيها من حيث تلى معظم الصبح وعمودَه لُمعُ نور، يتخيل منها فى العين كشكل قوادم إذا كانت بيضاء، وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر، وهو أن جعل ضوء الصبح لقوة ظهوره ودفعه لظلام الليل كأنه يحفز الدجى ويستجعلها ولايرضى منها بأن تتمهل فى حركتها، ثم لما بدأ بذلك أولا اعتبره فى التشبيه آخرا، فقال (**نطير غرابا**) ولم يقل (**غراب يطير**) مثلا، وذلك أن الغراب- وكل طائر- إذا كان واقعا هادئا في مكان، فأُزعِجَ وأُطِيرَ منه، أو كان قد حُبِسَ فى يَدٍ أو قَفَصٍ فأُرسِل، كان ذلك لا محالة أسرعَ لطيرانه، وأعجلَ وأمدَّ له، وأبعدَ لأمَدِه؛ فإن تلك الفَزْعةَ التى تَعْرِضُ له من تنفيرِه، أو الفرحةَ التى تدركه وتحدث فيه من خلاصه وانفلاته ربما دعته إلى أن يستمر حتى يغيب عن الأفق، ويصير إلى حيث لاتراه العيون، وليس كذلك إذا طار عن اختيار؛ لأنه يجوز حينئذ أن يصير إلى مكان قريب من مكانه الأول، وأن لايسرع فى طيرانه، بل يمضى على هينته، ويتحرك حركة غير المستعجل، فاعرفه»[1].

---

(١) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى : ص ١٦٢، ١٦٣ تحقيق هـ. ريتر ط. مكتبة المتنبى بالقاهرة ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

ولو اكتفى الإمام فى تحليل هذا التشبيه بقوله: (شبه ظلام الليل.. (إلى قوله) كشكل قوادم إذا كانت بيضاء)- لكفاه فى الإبانة عن تلك الصورة، ولكنه فتح للتذوق بابا آخر يلج منه إلى مزيد من الدقة والوعى بخبايا تلك الصورة، فقال :(وتمام التدقيق والسحر فى هذا التشبيه فى شىء آخر..إلخ).

فلا يكتفى الإمام بالتقاط ما ظهر من الصورة، بل يجهد نفسه فى سبيل الوصول إلى التفاصيل الدقيقة التى تحيط بالتشبيه، فتزيده حياة ونماء... فنحن هنا أمام عبقريتين: عبقرية الشاعر فى التقاط الصورة واستقصاء تفاصيلها ودقائقها، وعبقرية الشارح الذى يبذل فى فهم الشعر وتذوقه من العناء والكد مقدار مابذل الشاعر، حتى لايفوته من الكلام أجل مافيه؛ وبهذا يحيا الشعر بين يديه ولايموت، وتتحرك الصورة التى التقطها الشاعر بجميع شياتها أمامه، والأدب الحى لايستخرج أسراره إلا القارئ الحى[1].

فأين (**الجدل المنطقى الفلسفى**) فى مثل هذا التحليل البلاغى الرائع، القائم على الذوق السليم، والوعى البصير بأسرار البيان؟

وإنه لمن الممتع حقا أن تغذى الأذواق السليمة، وتربى الحواس الأدبية المرهفة على مثل هذه الشواهد العالية التى ينبئ اختيارها عن حكمة وسداد؛ فإن اختيار المرء قطعة من عقله.

وهذا البيت من قصيدة لابن المعتز، مطلعها :

صَحَوتُ، ولَكِنْ بَعْدَ أَىِّ فُتُونِ ... فلا تَسْأَلِينِى صَبْوَةً ودَعِينى

وَدَبَّ مَشِيبِى بَعْضُهُ نحوَ بَعْضِهِ ... فأخرَجَنِى من أَنْفُسٍ وعُيُونِ[2]

---

(١) أفدت مضمون هذه الفقرة من محاضرة لشيخنا الدكتور/محمد أبى موسى.

(٢) ديوان أشعار الأمير أبى العباس عبد الله بن محمد المعتز بالله الخليفة العباسى : ٢/ ٣١٣ تحقيق د/ محمد بديع شريف. ط/دار المعارف.

وهى من روائع ابن المعتز، يصور فيها صحوته بعد طول غفلة: (صحوت، ولكن بعد أى فتون)، وبيت التشبيه الذى اختاره الإمام من هذه القصيدة هو معقد كثير من المعانى التى حرص الشاعر عليها، فالصحوة التى جاءت بعد طول غفلة وفتون هى **(ضوء الصبح يستعجل الدجى)** وهى **(القوادم البيض فى جسم الغراب)**، والمشيب الذى دب بعضه نحو بعضه، وأخذ ينتشر فى شعر الرأس هو أيضاً (ضوء الصبح يستعجل الدجى) وهو (القوادم البيض فى جسم الغراب). وهذا نمط بديع من تجاوب المعانى واتصالها وتناديها.

وأما قول الدكتور إبراهيم أنيس فى النص السابق إن أكثر شواهد الإمام مجرد تمثيل بعبارات من صنعه ليس لها شواهد فيما روى من اللغة ففيه نظر أيضاً، لأن كتابى الإمام عبد القاهر مملوءان بالشواهد من القرآن الكريم والشعر والنثر، وحين يستشهد بأمثلة من صنعه، يستشهد بها لإيضاح الفكرة أولا فى ذهن القارئ، حتى إذا اتضحت أورد لها نظائر هذه الأمثلة المصنوعة من الشواهد القرآنية أو المروية عن العرب من الشعر والنثر.

والدلائل على ذلك من كلام الإمام عبد القاهر كثيرة، ويكفى أن ننظر إلى شواهده فى الفرق بين وقوع الاسم بعد همزة الاستفهام ووقوع الفعل بعدها [1].

فقد استشهد الإمام فى ذلك بمجموعة من الشواهد (المصنوعة) فأورد فى ذلك الفرق بين قولك: (أفعلت؟) و(أأنت فعلت؟) و(أبنيت الدار التى كنت على أن تبنيها؟) و (أأنت بنيت هذه الدار؟)..الخ، فلما اتضح الفرق الذى أراده الإمام، وأُشْرِبَت القلوب تلك المعانى الدقيقة التى هُدِى إليها، استشرف بهم أفقا أسمى من الشواهد العالية، فاستشهد من آى الذكر الحكيم بفيض كريم، منها قوله تعالى:

---

(١) ينظر دلائل الاعجاز: ١١١-١٢٣.

(أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنا يا إِبْرَاهِيمُ»[١].
(أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ المَلَائِكَةِ إِنَاثاً)[٢]
(أَصْطَفَى البَنَاتِ عَلَى البَنِينَ)[٣].

واستشهد من الشعر بمجموعة من الأبيات، منها قول امرئ القيس :

أَيقتُلُنِي والمَشْرَفِيُّ مُضَاجِعِي ... ومَسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأنيَابِ أَغْوَالِ

وقول عمارة بن عقيل :

أَأَتْرُكُ إِنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ ... زِيَارَتَهُ؟ إِنِّى إِذَنْ لَلَئِيمُ

وقد يستخف بعض الناس بشواهد الإمام الدائرة على كل لسان، المضوغة فى كل فم، فيراها لذلك سخيفة سقيمة لاجدة فيها ولا رواء، ولكن الإمام يقول :«ورُبَّ نَفِيسٍ جُلِب إليك من الأمكنة الشاسعة، ورُكِب فيه النَّوَى الشَّطون، وقُطِع به عرضُ الفيافى، ثم أخفى عنك فَضْلَه حتى جهلت قدره: أن سَهُلَ مَرَامُه، واتسع وجودُه، ولو انقطع مَدَدُه عنك حتى تحتاجَ إلى طلبه فى مَظِنَّتِه لعلمتَ إحسانَ الجائى به إليك والجالب المقرب نَيله عليك، ولأكثرت من شكره بعد أن أقللت وأخذت نفسك بتلافى ما أهملت[٤]»[٥].

٢- يقول الدكتور/ إبراهيم أنيس فى ملاحظاته على الإمام عبد القاهر:**(أما نقده للشواهد الشعرية فى كتابه، فهو أشبه بنقاد**

---

(١) سورة الأنبياء: ٦٢.
(٢) سورة الإسراء: ٤٠.
(٣) سورة الصافات: ١٥٣.
(٤) أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى: ص ١٧٤ بتحقيق هـ. ريتر، ط. مكتبة المتنبى.
(٥) الموازنة بين الشعراء فى دلائل الإعجاز: عرض وتعليق سلامة جمعة داود بحث مخطوط: ص ٧٠.

زماننا حين يحاولون التعريف بنواح من الجمال فى قول مأثور من مثل قوله : انظر إلى موضع الفاء فى قوله «فقد لاقيتنا فرأيت حربا»، وانظر إلي موضع الفاء و(ثم) قبلها؛ وانظر إلى الفصل والاستئناف فى قوله :«تريدين قتلى، قد ظفرت بذلك» وانظر إلى قوله «قد كنت أحسب» وإلى مكان الاستئناف؛ وانظر إلى التنكير فى قوله كيت، وانظر إلى التعريف والإشارة فى قوله كذا... إلخ»[1].

وهذه الملاحظة- فيما أرى- أظهرت شطر الحقيقة وأخفت الشطر الآخر؛ لأن نقد الإمام عبد القاهرة للشواهد الشعرية له صورتان:

الصورة الأولى: أن يكون نقدا ذاتيا، يُعْنَى فيه الإمام بالحكم بالحسن أو القبح دون أن يذكر العلل التى بنى عليها هذا الحكم. وهذه الصورة من النقد قليلة عند الإمام.

والصورة الثانية: أن يكون نقدا موضوعيا أى مبنيا على علله وأسبابه وهذه الصورة من النقد هى الغالبة على الإمام عبد القاهر، فإنه كان كثيرا ما يذكر أسباب الحسن أو القبح فيما يورده من شواهد.

ولعل الإمام كان يلجأ إلى النقد الذاتى فيقول انظر إلى كذا وإلى موضع الفاء أو (ثم)، ويكتفى بذلك- لعله كان يلجأ إلى هذا اللون من النقد ثقة منه بفطانة القارئ، واعتمادا على الأصول التى سبق أن قررها وأرسى أسسها وبدأ وأعاد فيها حتى أخذ بيد القارئ إلى الفهم والإقناع، ثم عرض له بعد ذلك مجموعة من النماذج واكتفى بأن يلفت نظره إلى مواضع الحسن أو القبح دون أن يخوض فى ذلك ويتغلغل في الإبانة عنه ثقة منه بفطنة القارئ وفهمه واقتناعه، وتدريبا له على الذوق السليم، حتى تتفتح مواهبه وحواسه فيذوق حر الكلام ويميز جيده من رديئه وحسنه من قبيحه.

---

(١) من أسرار اللغة: ص ٣٠٣.

وقول الدكتور إبراهيم فى النص السابق إن عبد القاهر **(أشبه بنقاد زماننا)** فيه ظلم كبير للإمام عبد القاهر، فأين نقاد زماننا من هذا الإمام الذى كان كتاباه (الدلائل والأسرار) فتحا جديدا فى ميادين البلاغة والنقد، وكان بذلك مؤسسا للمدرسة البلاغية التحليلية، ورائدا للنقد الأدبى القائم علي الذوق المرهف والحس الناضج والوعى البصير بخبايا الأدب واللغة. إن نقادنا المحدثين- إلا من رحم الله منهم -كثيراً ماتخفى عليهم هذه الأسس التى أرساها عبد القاهر، ولم تتوفر فيهم مقومات النقد الأدبى ووسائله التى توفرت لعبد القاهر، فكيف يشبه الدكتور عبد القاهر بهم وهم أصلا لا يرقون إلى أن يشبهوا به؟!!

ثانياً: اتهامه الإمام عبد القاهر بالمغالاة :

اتهم الدكتور إبراهيم أنيس الإمام عبد القاهر بالمغالاة، فقال الدكتور: (يجب أيضا أن لاتتصور أن الجمل المثبتة تكون كالجمل المنفية وأشباهها من جمل استفهامية، فى نظامها، وهندستها، وفيما تتطلب من ظواهر لغوية أخرى. **وقد كنت أظن أن هذا الأمر بديهى لايحتاج إلى نزاع طويل، أو جدل عقيم حتى قرأت لعبد القاهر ذلك النص الذى يفيد أن الجملتين فى رأيه تستويان** اذ يقول ما نصه :(واعلم أن معك دُستورا، فيه- إن تأملت- غنى عن كل ما سواه، وهو أنه لايجوز أن يكون لنظم الكلام وترتيب أجزائه فى الاستفهام معنى لايكون له ذلك المعنى فى الخبر. وذلك أن الاستفهام استخبار، والاستخبار هو طلب من المخاطب أن يخبرك؛ فإذا كان كذلك كان محالا أن يفترق الحال بين تقديم الاسم وتأخيره فى الاستفهام فيكون المعنى إذا قلت : أزيد قام؟ غيره إذا قلت: أقام زيد؟ ثم لايكون هذا الافتراق فى الخبر، ويكون قولك :«زيد قام» و«قام زيد» سواء)[1].

---

(١) النص فى «دلائل الاعجاز» للإمام عبد القاهر الجرجانى: ص ١٤٠ بتحقيق المرحوم الأستاذ/ محمود محمد شاكر. مطبعة المدنى ونشر الخانجى.

«وفى الحق أن عبد القاهر يغالى فى هذا الدستور، متناسيا أن النفى يرتبط بالاستفهام ارتباطا وثيقا، وأن ذلك الاستفهام الإنكارى ليس فى حقيقته إلا نفيا، ومتناسيا أن جملة مثل :«كانوا يجادلون بالباطل فيضلون الناس عن الطريق السوى» يصيبها ذلك التغير اللغوى المعروف مع النفى والاستفهام فتصبح: أكانوا يجادلون بالباطل فيضلوا الناس عن الطريق السوى؟» ومتناسيا أنه مما يجوز الابتداء بالنكرة أن تكون معتمدة على نفى أو استفهام، وأن الذى برر عدم المطابقة فى قول القائل:

أَمُنْجِزٌ أنتمُ وَعْداً وَثِقْتُ بِـهِ أم اقتَفَيتُمْ جميعاً نَهْجَ عُرْقُوبِ؟

ليس إلا الاعتماد على الاستفهام[1]» انتهى كلام الدكتور.

وبالتأمل فى كلام الدكتور نرى أنه اتهم الإمام عبد القاهر بثلاث تهم، الأولى: أنا نازع نزاعا طويلا فى أمر بديهى لايحتاج إلى نزاع. والثانية: أنه جادل فيه جدالا عقيما. والثالثة : أنه غالى وتناسى أمورا واضحة.

والحقيقة أن الإمام عبد القاهر برئ من هذا؛ لأن الجهة منفكة بين ماقصده الإمام وما استنبطه الدكتور من كلامه. فقد فهم الدكتور من النص أن الإمام يرى أن الجمل المثبتة والجمل المنفية سواء مع أن الإمام لم يتعرض فى النص للإثبات والنفى أصلاً، وكان قصده من النص أن يضع دستوراً عاماً في التقديم والتأخير فى الاستفهام والخبر،و أنه محال أن يكون هناك فرق فى الاستفهام بين «أقام زيد؟ و«أزيد قام؟» ثم لايكون هناك هذا الفرق نفسه بين الجملتين إذا حذف منهما الاستفهام فصارتا خبرين هكذا: «قام زيد» و«زيد قام».

وكانت نتيجة هذا الفهم أن اتهم الدكتور الإمام بأنه تناسى (هكذا) تناسى أى أنه (افتعل النسيان). وهذا لم يحدث؛ لأن الجهة منفكة بين ماقصد الإمام ومافهم الدكتور .

---

(١) من أسرار اللغة: ص ٣٠٩، ٣١٠.

ثالثاً: مع رأيه فى تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى:

يرى الدكتور إبراهيم أنيس أن المسند إليه إذا تقدم على الفعل الماضى كانت دلالته على القصر لازمة، أى أنه يفيد القصر بصرف النظر عن السياق الذى جاء فيه، يقول الدكتور: (ومتى استقر هذا فى الأذهان فلسنا بحاجة إلى دليل آخر على إفادة هذا القصر، كأن نلتمس من السياق أو الملابسات دليلاً على إرادة القصر بمثل هذا النظام)[1]. وساق الدكتور لذلك شواهد من سورة النحل، وهى قول الله عز وجل: **(واللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً)** آية ٦٥ - **(واللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ)** آية ٧٠ - **(واللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)** آية٧١ - **(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً)** آية ٧٢- **(واللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)** آية ٧٨ - **(واللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً)** آية ٨٠- **(وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً)** آية ٨١.

والدكتور فى رأيه هذا يخالف ماقرره الإمام عبد القاهر وجمهور البلاغيين من أن تقديم المسند إليه على الخبر الفعلى له صورتان: **الأولى:** أن يفيد القصر، كما فى الشواهد القرآنية التى ذكرها الدكتور. **والثانية:** أن لايفيد القصر، بل يفيد مجرد تقوية الكلام كما فى قوله تعالي: **(وَإِذَا جَاؤُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ)**[2]، ففى هذه الآية قدم المسند إليه (هم) على الفعل الماضى (خرجوا)، ولايصح أن يكون الغرض من التقديم القصر؛ لأنه يعنى أنهم وحدهم قد خرجوا بالكفر دون سواهم، وهذا فاسد)[3].

والدكتور إبراهيم أنيس أوجب فى تقديم المسند إليه على الفعل الماضى دلالة واحدة وهى (القصر) وأغفل الدلالة الثانية وهى (تقوية الكلام وتأكيده) فخالف بذلك جمهور البلاغيين من غير أن يتكئ فى مخالفته على دليل .

---

(١) من أسرار اللغة: ص٣١١ .

(٢) سورة المائدة: أية ٦١ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز: ص١٢٨-١٣٤ وشروح التلخيص للتفتازانى والغربى والسبكى والدسوقى: ج٢ ص٢٠٢، ٢٠٣ ط. دار السرور .

كان هذا رأى الدكتور في تقديم المسند إليه على الفعل الماضى، فإذا تقدم على الفعل المضارع كان للدكتور فيه رأى آخر يقول فيه: (ليس إذن فى الجملة المضارعية حين يتقدم فيها المسند إليه، أى نوع من القصر أو مايشبه القصر، وليس فيها ذلك التقوى فى المحكوم عليه كما يقول عبد القاهر حين يتحدث عن مثاله المشهور: «**هو يعطى الجزيل**»)[١].

والدكتور يخالف رأى الإمام عبد القاهر وجمهور البلاغيين من غير دليل. وقد قرر الإمام والبلاغيون كما سبق أن هذا اللون من التقديم إما أن يفيد القصر وإما أن يفيد تقوية الحكم وتأكيده، والدكتور يرى أنه لايفيد واحداً منهما .

ومن الشواهد الناطقة بدلالة تقديم المسند إليه علي الفعل المضارع على القصر قوله تعالى: «**وَمِنْ أَهْلِ المَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لاتَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**(التوبة ١٠١) قصر العلم بالمنافقين عليه سبحانه، وقوله (**اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ**) (العنكبوت ٦٢)، قصر بسط الرزق على الله عز وجل ونفاه عن كل من سواه.[٢]

ومن الشواهد الناطقة بدلالة هذا التقديم على تقوية الحكم وتوكيده، قوله تعالى: (**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الذِى نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**) (الأعراف ١٩٦) فتقديم المسند إليه (هو) على الفعل المضارع (يتولى) لايفيد القصر، بل يفيد تقوية الكلام وتأكيده (ليلائم هذا السياق الذى يقرر لهم فيه الرسول حال يقينه فى وثاقته بربه)[٣].

وقد بين البلاغيون وجه إفادة هذا التقديم للتقوية والتأكيد، فذكر الإمام عبد القاهر أن السر فى ذلك يرجع إلى أن تقديم المسند إليه يفيد التشويق إلى معرفة الخبر، وتوطئة النفس للخبر قبل ذكره، حتى إذا ذكر دخل على النفس خول المأنوس به[٤]. وذكروا في سر التقوية هنا وجهاً آخر، وهو تكرار الإسناد

---

(١) من أسرار اللغة: ص٣١٧ .

(٢) ينظر خصائص التراكيب د/ محمد أبو موسى ص١٧٦ ط. ثالثة. نشر مكتبة وهبة.

(٣) المصدر السابق: ص٢٧٤.

(٤) ينظر دلائل الإعجاز ص١٣٢.

لأن الفعل يسند إلي الإسم الظاهر مرة، ثم يسند إلي ضميره مرة أخرى، فالفعل (يتولى) فى الآية السابقة أسند إلى (هو) مرة، وأسند إلى الضمير المستتر فيه مرة ثانية، فصار التقديم أقوى وآكد.

رابعاً: مع رأيه فى قوله تعالى (قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ) (١):

قرر الإمام عبد القاهر فى حديثه عن التقديم والتأخير في الاستفهام أن المستفهم عنه هو مايلى الهمزة اسماً كان أو فعلاً، فإذا وليها الفعل كان الاستفهام عنه نحو (أقلت شعراً) و(أبنيت الدار) فالاستفهام فيهما عن قول الشعر وبناء الدار كان أو لم يكن؟ وليس الاستفهام فيهما عن القائل والباني: من هو؟ ومثال هذا في القرآن الكريم قوله تعالى **(أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ. مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)** (٢) فالمستفهم عنه هو الاصطفاء، ولذا ولى الفعل همزة الاستفهام .

وإذا ولى الاسم همزة الاستفهام كان هو المستفهم عنه، ولابد فى هذه الحالة أن يكون الفعل ثابتاً لاشك فيه، ومثاله قول عبدة الأصنام لسيدنا إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنامهم: **(أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ)** (٣)، قال الإمام عبد القاهر: (لاشبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يُقِرَّ لهم بأن كسر الأصنام قد كان، ولكن يقر بأنه منه كان، وكيف؟ وقد أشاروا له إلى الفعل فى قولهم: «أأنت فعلت هذا ؟»، وقال هو عليه السلام في الجواب: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا» (٤)، ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب: «فعلت، أو لم أفعل») (٥).

هذا هو الأصل المطرد فى شأن التقديم والتأخير فى الاستفهام، ولكن الإمام استثنى من هذا الأصل صورة واحدة يكون المراد فيها إنكار الفعل ومع

---

(١) سورة يونس: آية ٥٩ .

(٢) سورة الصافات: ١٥٣، ١٥٤ .

(٣) سورة الأنبياء: ٦٢ .

(٤) سورة الأنبياء: ٦٣ .

(٥) دلائل الإعجاز: ص١١٣ .

ذلك لايقع بعد همزة الاستفهام وإنما يقع بعدها الاسم لغرض بلاغى دقيق ونكتة لطيفة، قال الإمام: (وقد يكون أن يُرادَ إنكارُ الفعل من أصله، ثم يُخْرَجَ اللفظُ مُخْرَجَه إذا كان الإنكار فى الفاعل. مثال ذلك قوله تعالى: «قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ»[1]: (الإذن) راجع إلى قوله «قُلْ أَرَأَيتُمْ مَاأَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وحَلَالاً»[2] ومعلوم أن المعنى على إنكار أن يكون قد كان من الله تعالى إذن فيما قالوه، من غير أن يكون هذا الإذن قد كان من غير الله، فأضافوه إلى الله، إلا أن اللفظ أُخْرِجَ مُخْرَجَه إذا كان الأمر كذلك، لأن يُجعَلُوا فى صورة من غَلِطَ فأضاف إلي الله تعالى إذناً كان من غير الله، فإذا حُقِّقَ عليه ارتدع[3]).

ولكن الدكتور إبراهيم أنيس لم يرتض هذا الاستثناء الخارج عن الأصل المطرد، ولذلك قال: (ولست أدرى لم تردد عبد القاهر في جعل قوله تعالى: «قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ» من هذا النوع؟ ولم يعتبر أن الإذن بتحليل بعض الأشياء وتحريم البعض الآخر قد وقع فعلاً من القسيسين والرهبان، وأن موضع التساؤل والإنكار هو الإذن من الله سبحانه؟ فالله سبحانه وتعالى يقول في هذه الآية: «قُلْ أَرَأَيتُمْ مَاأَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلَالاً»، ثم يعقب عليها بقوله: «قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ»!![4].

الشيخ عبد القاهر يرى أن الاستفهام فى الآية لم يجر على الأصل المطرد والدكتور يرى أنه جار عليه ويتعجب من رأى عبد القاهر، وقد نبه الإمام برأيه إلى أن وراء الاستفهام هنا معانى لطيفة تضيع إذا جعلنا المستفهم عنه فيها هو الفاعل (الله)، لأن هؤلاء القسيسين والرهبان (كانوا قد أحلوا وحرموا فيما رزقهم الله سبحانه، والذى يملك التحليل والتحريم هو الله لاغيره، فقوله (آلله أذن لكم) الإنكار فيه موجه إلى المسند إليه، والمراد إنكار الإذن؛ لأنه إذا لم

---

(٦) سورة يونس: ٥٩ .

(١) سورة يونس: ٥٩ .

(٢) دلائل الإعجاز: ص١١٥ .

(٣) من أسرار اللغة: ص٣١٣ .

يكن قد كان من الله إذن فى التحليل والتحريم فلن يكون من غيره، وهذا طريق أوكد فى نفى الفعل لأنه أومأ إلي دليل هذا النفى، وليس هذا كقولنا «أأذن الله لكم؟» بمعنى: لم يكن ذلك؛ لأن هذا إنكار لادليل عليه، وهكذا تقول: «أفي ليل كان ذلك أم فى نهار؟» فتنكر كونه في الليل وكونه في النهار، ويلزم من هذا أنه لم يكن؛ لأنه إذا كان فلابد أن يكون في أحدهما. وهكذا تقول: «أفى البر ذلك أم في البحر؟» وأنت تريد لم يكن في بر ولابحر، ومنه قوله تعالى: (**قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ أَمْ مَااشْتَمَلَتْ عَلَيهِ أَرْحَامُ الأُنْثَيَيْنِ**)، المراد إنكار التحريم من أصله، ودليل ذلك أنه لو كان هناك تحريم لوقع على واحد من الأصناف المذكورة، فإذا انتفى وقوعه عليها انتفى التحريم من أصله .

وهذا الأسلوب فيه مزيتان:

المزية الأولى: أن تفترض أن الشئ قد وقع، ثم تأخذ فى استقصاء المظاهر الضرورية لوقوعه، فتنفيها واحداً واحداً، وينتهى هذا إلى نفي الفعل بالضرورة؛ وفي هذا إيناس وإقناع ...

المزية الثانية: أن مسلك المعنى فيه مسلك الاقتضاء واللزوم، وهو أبعث لحركة النفس، وأكثر إنهاضاً للفكر وتنشيطاً له، لأنه يفيد نفى الفعل بطريقة الكناية، وإذا كانت وثبات الخيال من مظاهر أسلوب المجاز، فإن حركة العقل ونشاطه على مدارج اللزوم من مظاهر أسلوب الكناية»[1].

هذه إشارة إلى المعانى اللطيفة التى وراء رأى الإمام عبد القاهر، ولو أخذنا برأى الدكتور إبراهيم أنيس لضاعت هذه المعانى التى تمتع العقل والوجدان، وهذا هو سر الإعجاز في كتاب الله تعالي.

---

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية د. محمد محمد أبو موسى: ص٢٣٩، ٢٤٠ بتصرف ط. دار التضامن ط. ثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م نشر مكتبة وهبة .

خامساً: سهوه فى استقراء آيات القرآن الكريم:

يقول الدكتور إبراهيم أنيس فى حديثه عن الجملة المضارعية المنفية: (أما إذا سبق «النفى» المسند إليه، وأصبحت الجملة كما يأتى: أداة النفي + المسند إليه + المسند .

فتصور لنا الجملة أسلوباً نادراً في اللغة العربية، لم يرد مع لفظ الجلالة إلا في آيتين متشابهتين هما: (وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعَالَمِينَ - وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعِبَادِ)[1]، فأما قول الدكتور إن هذا الأسلوب (لم يرد مع لفظ الجلالة إلا في آيتين متشابهتين) فهو صحيح، وأما قوله إن (أداة النفى + المسند إليه + المسند: تصور لنا أسلوباً نادراً فى اللغة العربية) فهو غير صحيح؛ لأنه ليس نادراً في اللغة العربية، بل هو كثير، ومنه في القرآن الكريم- على سبيل المثال لاالحصر- قوله تعالى:

- (وَاتَّقُوا يَوماً لاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيئاً ولايُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ ولايُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ) البقرة: ٤٨ .
- (وَاتَّقُوا يَوماً لاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيئاً وَلايُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاتَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاهُمْ يُنْصَرُونَ) البقرة: ١٢٣ .
- (أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوا الحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ العَذَابُ وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ) البقرة: ٨٦ .
- (إِنَّ يَومَ الفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ. يَومَ لايُغْنِى مَولىً عَنْ مَولىً شَيئاً وَلاَهُمْ يُنْصَرُونَ» الدخان: ٤٠، ٤١) .
- (أَلاَ إِنَّ أَولِيَاءَ اللَّهِ لاَخَوفٌ عَلَيهِمْ وَلاَهُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس: ٦٢).
- (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنا لايَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَهُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ) (الأنبياء: ٤٣).
- (وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَهُمْ يُنْقَذُونَ» (يس: ٤٣).

فالجمل التى تحتها خط فى الآيات القرآنية السابقة يقوم التركيب فيها على أداة النفى (لا) + المسند إليه+الفعل المضارع (ينصرون - يحزنون- يصحبون- ينقذون) .

---

(١) من أسرار اللغة: ص٣١٧ .

وهذا النمط من التراكيب كثير - أيضاً - في شعر عمر بن أبى ربيعة، ومنه قوله:

ولاقُرْبَ نُعْمٍ- إنْ دَنَتْ - لكَ نَافِعٌ
ولانَأْيُهَا يُسْلِى، ولاأنتَ تَصْبِرُ(١)

وقوله:

نقُلتُ لها: هل قادَنى الشَّوقُ والهَوَى
إليكِ، ومَانَفْسٌ مِنَ النَّاسِ تَشْعُرُ(٢)

وقوله:

يَقُومُ، فيَمْشِى بَينَنا مُتَنَكِّراً فلا سِرُّنَا يَفْشُو، ولاهُوَ يَظْهَرُ(٣)

والأبيات الثلاثة من قصيدة واحدة فقط، هى أول قصيدة فى ديوانه، والشاهد في البيت الأول قوله (ولانأيها يسلى، ولاأنت تصبر)، وفي الثانى: (ومانفس من الناس تشعر)، وفي الثالث: (فلا سرنا يفشو، ولاهو يظهر).

ومن هذا النمط قول حسان فى رثاء الرسول صلى الله عليه وسلم:

تَنَاهَتْ وَصَاةُ المسلمين بكَفِّهِ
فَلا العِلْمُ مَحْبُوسٌ، ولاالرَّأى يُفْنَدُ(٤)

الشاهد: (ولا الرأى يفند).

وقول أبى تمام:

سَكَنَ الزَّمَانُ، فلا يَدٌ مَذْمُومَةٌ للحادثاتِ، ولاسَوَامٌ يُذْعَرُ(٥)

---

(١) ديوان عمر بن أبى ربيعة بشرح الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد: ص٩٢ ط. المدنى. ط. ثالثة ١٣٨٤هـ= ١٩٦٥م.

(٢) المصدر السابق: ص٩٧.

(٣) المصدر السابق: ص١٠٠.

(٤) ديوان حسان بن ثابت الأنصارى: ص٤٩ ط/ دار ابن خلدون.

(٥) ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى: ١٩٧/٢ تحقيق محمد عبده عزام - ط/ دار المعارف ط. رابعة.

الشاهد: (ولاسوام يذعر) .

وقول بَشَامَةَ بن حَزْنٍ النَّهْشَلِيِّ:

إِنَّا بَنِي نَهْشَلٍ لانَدَّعِي لأَبٍ عَنْهُ، وَلاهُوَ بالأبْنَاءِ يَشْرِينا (١)

الشاهد: (ولاهو بالأبناء يشرينا) .

وقول كعب بن سعد الغنوى:

فإنَّكِ واللَّوْمَ الذى تَرْجِعِينَهُ عَلَيَّ، ومالَوَّامَةٌ بِعَقُولِ
كداعى هَدِيلٍ لايُجَابُ إذا دَعَا ولاهُوَ يَسْلُو عن دُعاءِ هَدِيلِ (٢)

الشاهد: (ولاهو يسلو) .

وبهذا نرى أن الدكتور إبراهيم أنيس حكم علي هذا التركيب (أداة النفى + المسند إليه+ المسند) بأنه (نادر في اللغة العربية) مع أنه - كما رأينا - كثير في كتاب الله تعالى، وفي الشعر العربى .

ومن سهو الدكتور - أيضاً - في استقراء آيات القرآن الكريم قوله فى حديثه عن الجمل المضارعية المثبته التى تتكون من: المسند إليه + أداة النفى + المسند:

قال :(وقد ورد في القرآن الكريم أمثلة كثيرة على هذه الصورة مثل: **«واللَّهُ لايُحِبُّ الفَسَادَ»** (٣)، **«واللَّهُ لايَهْدِى القَومَ الظَّالِمِينَ»** (٤) **وكل الأمثلة القرآنية التى علي هذه الصورة، وفيها المسند إليه لفظ الجلالة (الله)، لاتشتمل إلا على أحد المضارعين: يحب، يهدى)** (٥).

---

(١) البيت فى خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى: ٨/ ٢ . ٣ تحقيق/ عبد السلام هارون. نشر مكتبة الخانكى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م .

(٢) المصدر السابق: ٨/٥٧٣ .

(٣) البقرة: ٢٠٥ .

(٤) البقرة: ٢٥٨ .

(٥) من أسرار اللغة: ص٣١٦ .

وهذا الحكم الكلى الذى يطلقه الدكتور على القرآن الكريم غير موفق، لأن في القرآن الكريم أمثلة كثيرة جاءت علي هذه الصورة: المسند إليه فيها هو لفظ الجلالة (الله) وتشتمل على أفعال مضارعة أخرى غير (يحب)، (يهدى): ومنها الفعل (يغفر) كما فى قوله تعالى **(إِنَّ اللَّهَ لايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)** وقد ذكر مرتين فى سورة النساء، آية: ٤٨ و، آية: ١١٦. ومنها الفعل (يصلح) كما فى قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ لايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)** يونس: ٨١. ومنها الفعل (يغير) كما فى قوله: **(إِنَّ اللَّهَ لايُغَيِّرُ مَابِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ)** الرعد: ١١. ومنها الفعل (يضيع) كما فى قوله تعالى: **(إِنَّ اللَّهَ لايُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ)** وقد ذكر ثلاث مرات فى القرآن: فى سورة التوبة: ١٢٠، وفى سورة هود: ١١٥ وفى سورة يوسف: ٩٠. وقد سها الدكتور رحمه الله - عن ذلك كله ولم يذكر إلا الفعلين (يحب) و(يهدى)؟

سادساً: مع رأيه فى التسوية بين الاسم والفعل المضارع فى المعنى:

من الآراء الكبيرة التى ذكرها المرحوم الدكتور إبراهيم أنيس، أنه جعل دلالة (الاسم) و(الفعل) على المعنى الواحد سواء، فلا فرق عنده بين: (زيد منطلق) و(زيد ينطلق) ولافرق عنده بين قوله تعالى **(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)**[1]. وبين أن يقال: **(والله الداعى إلى دار السلام)**.

وهذا يخالف ماقرره الإمام عبد القاهر والبلاغيون من بعده، بل وماقرره النحاة أيضاً.

وأسوق هنا نص الدكتور إبراهيم - على طوله - حتى يتبين لنا رأيه. قال- رحمه الله - فى حديثه عن الجمل المضارعية المثبتة: (فإذا تقدم المسند

---

(١) سورة يونس: ٢٥.

إليه وأصبحت الجملة مثل: والله يدعو إلى دار السلام وجب أن تعد الجملة جملة بسيطة **ولافرق بينها حينئذ وبين أن نقول «والله الداعى إلى دار السلام»** فالمضارع هنا ليس في الحقيقة فعلاً وإنما هو «وصف» يجوز عليه مايجوز علي الوصف من وجوب مطابقة موصوفه فى كل شئ فلا فرق بين المضارع فى مثل هذه الجمل حين يتقدم المسند إليه، وبين مايشتق منه من صفة **لافي معناهما** ولافيما يصيب كلاً منهما من تغيير مع التثنية أو الجمع أو التأنيث. أما صيغة كل منهما، فإن اختلفتا في الثلاثى، فقد كادتا تتحدان فى غير الثلاثى .

وقد أجهد عبد القاهر نفسه، وأجهدنا معه، حين حاول أن يتلمس فروقاً بين استعمال الفعل المضارع واستعمال مااشتق منه **«زاعماً لنا** أن المعنى مع المضارع يفيد التجدد ووقوع الحدث شيئاً فشيئاً؟ فى حين أنه مع المشتق لايكاد يعدو ثبوت الصفة وحصولها .

ويجارى عبد القاهر فى هذا كل البلاغيين، ويسوقون لنا ذلك الشاهد المشهور:

أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَةٌ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ

وفي الحق أن التجدد هنا مستفاد من التعبير بكلمة «كلما»، لامن استعمال المضارع «يتوسم»، ولا أكاد أشعر بذلك الفرق الذي يزجيه حين يقول: إن «يرزقكم» فى قوله تعالى: **«هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ»**(١)، تفيد معنى آخر غير الذى يمكن أن يستفاد، إذا كانت الآية: هل من خالق غير الله رازق لكم وربما يصدق كلام عبد القاهر مع تلك الصفات المشبهة التى تفيد الثبوت، والتى لاحيلة للمرء فيها كالطويل والقصير ونحو ذلك. ولكنا حين نتتبع مثل هذه الصفات واستعمالاتها لانكاد نعثر على أفعالها مستعملة فى أساليب صحيحة وقد أفادت ذلك التجدد المزعوم. وإنما الذى نلحظه في

---

(١) فاطر: ٣ .

أساليب اللغة هو المناظرة بين المضارع ومااشتق منه حين يكون الفعل اختيارياً معبراً عن الحدث voluntary وهو مايشهد به الأسلوب القرآنى **ويكفي أن نقارن بين الآيات القرآنية الآتية لندرك مبالغة عبد القاهر ومغالاته:**

وإِذَا خَلَوا إلى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحنُ مُسْتَهْزِئُونَ

اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ

فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَينَهُمْ

وَهُوَ خَيرُ الحَاكِمِينَ

واللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ

وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً ونَصِيراً

واللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ

والمُقِيمِينَ الصَّلاةَ والمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ

واللَّهُ يُحْيِي ويُمِيتُ

إِنَّ الذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي المَوْتَى

قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا

إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ

واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً

وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا

وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

فالمضارع حين يقع بعد المسند إليه لايكاد يعبر إلا عما يعبر عنه الوصف المشتق فى مثل هذا الوضع .

أما مايشير إليه النحاة في كتبهم من أن المضارع للحال والاستقبال ومايقول به بعض المحدثين من أنه قد يتناول الماضى أيضاً؛ ومن أنه قد يدل على ماصار بمنزلة الطبيعة أو العادة، إلى غير ذلك من تلك الدلالات التى تنسب للمضارع؛ فكل هذا مرجعه حين يسبق المضارع المسند إليه، ويجب أن نلتمس تلك الدلالات المتعددة فى المضارع حين تبتدئ به الجملة مثل: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ» ولذا أرجح أن جملة مثل: **«محمد يفهم» لاتكاد تزيد أو تنقص عن «محمد فاهم»**[1].

---

(١) من أسرار اللغة: ص٣١٥، ٣١٦ .

انتهى كلام الدكتور وهو بذلك يلغى جهد عبد القاهر، ويرى أن هذه الفروق التى أجهد عبد القاهر نفسه في تلمسها بين (الاسم) و(الفعل) ماهى إلا مجرد (زعم) يزعمه عبد القاهر، وجاراه في هذا الزعم (كل البلاغيين)!!!

لقد أجمل الإمام عبد القاهر الفروق بين (الاسم) و(الفعل) فى أربع صفحات من اروع ماكتب فى (دلائل الإعجاز) من ص١٧٤ إلى ص١٧٧ .

وخلاصة هذه الفروق كما قال الإمام: (أن موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشئ من غير أن يقتضى تجدده شيئاً بعد شئ. وأما الفعل فموضوعه علي أنه يقتضى تجدد المعنى المثبت به شيئاً بعد شئ)[1].

واستشهد الإمام عبد القاهر - والبلاغيون من بعده - بقول الله تعالى: (وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيهِ بالوَصِيدِ)[2] وقوله: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأرضِ)[3]، ومن الشعر بقول النضر بن جؤية:

لايَأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ خِرْقَتَنَا ... لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيهَا وَهْوَ مُنْطَلِقُ

ويقول الأعشى:

لَعَمْرِى لَقَدْ لاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرَةٌ ... إلى ضَوْءِ نَارٍ فى يَفَاعٍ تَحَرَّقُ
تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ على النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ

وقول طريف بن تميم العنبرى:

أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظُ قَبِيلَةٌ ... بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّمُ

---

(١) دلائل الإعجاز: ص١٧٤ .

(٢) سورة الكهف: ١٨ .

(٣) سورة فاطر: ٣ .

هذه هى شواهد الإمام في تلك المسألة، ولابد من وقفه معها لفهم هذه الفروق التى استنبطها ومعرفة السر فى أنه لايصح فيها أن يستعمل (الاسم) فى موضع (الفعل) ولاالعكس .

١ - قوله تعالى: «وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيهِ بِالوَصِيدِ»[١]: التعبير بالاسم (باسط) «يفيد أن الكلب علي هيئة وصفة ثابتة هى بسط الذراعين بالباب، كما تقول: هو طويل، فى أنك تثبت له صفة هو عليها من غير إشعار بشئ آخر ولاإشارة إليه، ولو قال: «كلبهم يبسط ذراعيه» لكان المعنى أن الكلب يحدث البسط ويزاوله ويتجدد منه شيئاً فشيئاً، وليس هذا هو المراد، وإنما المراد أن الكلب باسط ذراعيه بالباب وهو على هذه الصورة الثابتة الجامدة، فتظل الصورة العامة لفتية الكهف يلفها سياج من المهابة والخشية «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً» (٢)،(٣).

٢ - قوله تعالى: (هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ والأَرضِ) فاطر: ٣) ففى هذه الآية عبر سبحانه بالفعل (يرزقكم) للدلالة على أن رزقه لخلقه يتجدد شيئاً فشيئاً، فنعمه عليهم متواترة، وآلاؤه متجددة لاتنقطع، ويعيش الخلق فيها ويتمتعون بها، ومع ذلك يجحدون الخالق الرازق، ورزقه يغمرهم؛ فدلالة الفعل هنا على جحود الناس وكفرهم بنعمة الله أشد وأفظع من دلالة (الاسم) الذى يقتضى أن يكون الرزق ثابتاً لايتجدد شيئاً فشيئاً، فالفعل (يرزق) يصور أن الإنسان يكفر بنعمة الله مع أن الله يجدد له النعمة ويزيدها وينميها، وهل هناك صورة افظع من ذلك ؟

---

(١) سورة الكهف: ١٨ .

(٢) سورة الكهف ١٨ .

(٣) خصائص التراكيب د. محمد أبو موسى: ص٢٣٤، ٢٣٥ نشر مكتبة وهبة ط. ثالية.

٣ - قول النضر بن جؤية:

لايَأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ خِرْقَتَنَا لَكِنْ يَمُرُّ عَلَيها وَهْوَ مُنْطَلِقُ

(الشاعر يذكر قومه بالسخاء وأنهم لايبقون من المال بقية، فصرتهم لاتألف الدرهم، وقوله «وهو منطلق» جاء بصيغة الاسم؛ لأنه يريد أن يثبت للدرهم صفة الانطلاق من غير إشعار بتجدد وحدوث، حتى يؤكد أن الدرهم لايتوقف توقفاً ما عند الصرة ينقطع به انطلاقه ليتجدد بعد ذلك، وإنما هو منطلق انطلاقاً ثابتاً مستمراً، ولو قال: يمر عليها وهو ينطلق، لكان المعنى أن انطلاقه يتجدد، وهذا يعنى أنهم يمسكونه زماناً ما كما قلنا)[1].

والسياق الذى وُرد فى بيت النضر يتطلب التعبير با لاسم (منطلق) لابالفعل (ينطلق)، حيث يقول متمدحاً بالغنى والكرم:[2]

قَالتْ طَرِيفَةُ : ماتَبْقَى دَرَاهِمُنَا ومابِنا سَرَفٌ فيها ولاخَرَقُ
إنَّا إذا اجتَمَعتْ يَوماً دَراهِمُنا ظَلَّتْ إلى طُرُقِ المعروفِ تَسْتَبِقُ
لايَأْلَفُ الدِّرْهَمُ المَضْرُوبُ صُرَّتَنا لَكِنْ يَمُرُّ عليها وَهْوَ مُنْطَلِقُ
حَتَّى يَصِيرَ إلى نَذْلٍ يُخَلِّدُهُ يَكَادُ مِنْ صَرِّهِ إيَّاهُ يَنْمَزِقُ

فقوله في البيت الثانى (ظلت إلى طرق المعروف تستبق) يدل على أن دراهمهم في سباق دائم مستمر فهى لاتتوقف عن هذا الاستباق ولاتنقطع عنه، وهذا يتطلب التعبير بالاسم (منطلق) لما فيه من معنى الثبوت والاستمرار الذى سبق في البيت الأول.

وقوله في البيت الرابع (حتى يصير إلى نذل يخلده) نجد فيه التعبير بـ(حتى) يصور نهاية تلك الرحلة المستمرة التى قطعها الدرهم وهو منطلق عن صرته لم يسكن أمامها لحظة واحدة، (حتى) كان مصيره إلى نذل يحبسه فيطول حبسه بعدما كان حراً طليقاً .

٣ - قول الأعشى:

لَعَمْرِى لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ كَثِيرةٌ إلى ضَوْءِ نَارٍ فى يَفَاعٍ تَحَرَّقُ

---

(١) خصائص التراكيب: ص٢٣٤ .

(٢) ينظر شروح التلخيص: ٢/ ٣٠ .

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيانِهَـــا وَبَاتَ عَلَى النَّارِ النَّدَى والمُحَلَّقُ[1]

(قال: فى يفاع تحرق، أى تتحرق، واليفاع: المشرف من الأرض، فالنار على مكان عال تتحرق، ولو قال: متحرقة؛ لأنكرته النفس كما قال عبد القاهر؛ وذلك لأن قولنا: فى يفاع متحرقة، يفيد أن النار متحرقة فقط، وليس هذا غرض الشاعر، وإنما غرضه أن النار تتحرق ويتجدد منها الإحراق ويحدث شيئاً فشيئاً، وأن (المحلق) هنا يجدد ويعلى لهبها واشتعالها لتكون ناره أهدى لسارب الليل؛ وأجلب لطالب المعروف، وفيه من الدلالة على تمكن طبيعة السخاء والبذل ماليس فى غيره)[2].

٥ - قول طريف بن تميم العنبرى:

أَوَ كُلَّمَا وَرَدَتْ عُكَاظَ قَبِيلَـةٌ بَعَثُوا إِلَيَّ عَرِيفَهُمْ يَتَوَسَّـــمُ

(يذكر الشاعر بسالته وشهرته، وأنه كلما وردت قبيلة سوق (عكاظ) أرسلوا القيم على أمرهم يتوسم الوجوه ليتعرف على (طريف) طالباً للثأر منه؛ لأن له فى كل قوم نكاية. لو وضع الاسم موضع الفعل وقال: بعثوا إلى عريفهم متوسماً؛ لذهب من المعنى حاشيته، وفسد الكلام. وذلك أنه أراد أن العريف يقع منه التوسم والتعرف والتأمل شيئاً فشيئاً، فهو دائم المراجعة والتصفح وتجديد النظر فى وجوه القوم؛ وهذا يعنى أنه معنىٌّ جداً بالبحث عن (طريف)، ولو قال: (متوسماً) لكان المعنى أن العريف على صفة التوسم والتأمل دون إشعار بحالة التجديد)[3]، وليس التجديد مفاداً من (كلما) كما ذكر الدكتور إبراهيم بدليل أنها لو حذفت أو وضع مكانها (إذا) لظل التجديد قائما.

وبعد هذه التأملات في شواهد الإمام عبد القاهر والبلاغيين فى هذه المسألة أرى أن ماقاله الدكتور إبراهيم أنيس إنما هو تعبير عن تذوقه وشعـــوره

---

(١) «المُحَلَّقُ» اسمه: عبد العزى بن خنتم بن شداد بن ربيعة المجنون بن عبد الله بن أبى بكر ابن كلاب، وسمى «المحلق»؛ لأن فرساً عضه فى خده عضه كالحلقة. (هامش تحقيق دلائل الإعجاز للأستاذ محمود شاكر: ص١٧٦ بتصريف).

(٢) خصائص التراكيب: ص٢٣٥ .

(٣) خصائص التراكيب: ص٢٣٦ .

ولذا قال (ولا أكاد أشعر بذلك الفرق) والشواهد السابقة لاتؤيد هذا الشعور ومقررات البلاغيين تخالفه ولاتقبله وقد حذر الإمام عبد القاهر من هذا الذى وقع فيه الدكتور/ ابراهيم أنيس، وكأنه يقصده بكلامه ويعنيه حين قال: (ولاينبغى أن يغرك أنا إذا تكلمنا في مسألة المبتدأ والخبر قدرنا الفعل فى هذا النحو تقدير الاسم، كما نقول فى «زيد يقوم» إنه فى موضع «زيد قائم»؛ فإن ذلك لايقتضى أن يستوى المعنى فيهما استواء لايكون من بعده افتراق؛ فإنهما لو استويا هذا الاستواء، لم يكن أحدهما فعلاً والآخر اسماً، بل كان ينبغى أن يكونا جميعاً فعلين أو يكونا اسمين) (١).

رحم الله عبد القاهر فقد صار الفعل والاسم عند الدكتور إبراهيم مستويين استواء لايكون من بعده افتراق، كأنهما جميعاً فعلان أو كأنهما اسمان!! فلا فرق بينهما!!

وإذا عدنا إلى الشواهد القرآنية التى استشهد بها الدكتور إبراهيم لنقارن بينها وندرك (مبالغة عبد القاهر ومغالاته) لوجدنا أنها ثمانية ... يجب أن نتمهل عندها قليلاً لنقارن وندرك ماأراد الدكتور لنا أن ندركه:

الشاهد الأول: قوله تعالى **(وَإِذَا خَلَوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ)** البقرة ١٤. أراد الدكتور أن نقارن بين الاسم (مستهزئون) وبين الفعل المضارع فى قوله تعالى تعقيباً على ذلك (اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ) البقرة ١٥.. والحقيقة أن بين الاسم والفعل فرق كبير، فالمنافقون آثروا التعبير بالاسم (مستهزئون) للدلالة على أن استهزاءهم بالمؤمنين ثابت دائم وهذا الثبوت والدوام امتداد للمقصود من قولهم قبل ذلك (إنا معكم) أى ثابتون على دينكم دائمون على ملتكم. وفى هذا تأكيد للمعنى وتقوية له .

وأما التعبير بالفعل المضارع (يستهزئ) دون الاسم ففيه دلالة على تجدد استهزائه تعالى بالمنافقين، قال الألوسى: (وعدل سبحانه عن: الله مستهزئ بهم المطابق لقولهم إلى قوله (الله يستهزئ بهم) لإفادة التجدد الاستمرارى، وهو أبلغ من الاستمرار الثبوتى الذى تفيده الاسمية؛ لأن البلاء إذا استمر قد يهون وتألفه النفس كما قيل:

---

(١) دلائل الإعجاز: ص١٧٧ .

خُلِقْتُ أَلُوفاً، لو رَجَعْتُ إلى الصِّبَا لفَارَقْتُ قلبى مُوجَعَ القَلْبِ باكياً

وقد كانت نكايات الله تعالى فيهم، ونزول الآيات فى شأنهم أمراً متجدداً مستمراً (أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أو مَرَّتَيْنِ) (سورة التوبة ١٢٦) (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيهِمْ سُورَةٌ تُنبِئُهُمْ بِمَا فى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَاتَحْذَرُونَ) (سورة التوبة ٦٤).

والشاهد الثاني: قوله تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيسَتِ النَّصَارَى على شَىْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيسَتِ الْيَهُودُ على شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لايَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) (البقرة ١١٣). الشاهد فى الآية قوله (فالله يحكم بينهم) استشهد به الدكتور لنقارن بين التعبير فيه بالمضارع (يحكم) والتعبير باسم الفاعل (الحاكمين) فى قوله تعالى (وَهُوَ خَيرُ الْحَاكِمِينَ) (الأعراف ٨٧ ويونس ١٠٩ ويوسف ٨٠). والتعبير بالمضارع فى الآية الأولى يدل على التجدد والاستمرار، وهذا ملائم للمقام لأن حكم الله بين اليهود والنصارى فيما كانوا فيه يختلفون محله يوم القيامة، ولما كانت اختلافاتهم في الدنيا متجددة ومتكررة بدليل استخدام المضارع (يختلفون) دون الماضى (اختلفوا) - ناسبها أن يكون حكم الله بينهم يوم القيامة متجدداً ومتكرراً فى قضية بعد قضية واختلاف بعد اختلاف؛ ولذا آثر القرآن المضارع (يحكم) الدال على هذا التجدد .

وإيثار الاسم فى قوله (وهو خير الحاكمين) للدلالة على الثبوت والدوام فى الاتصاف بالحاكمية، أى أنه سبحانه (أفضل الموصوفين بالوصف فيما يراد منه، وفى موقعه وفائدته)[1]. فلما كانت هذه الجملة تكشف عن صفة من صفات ذاته سبحانه جئ بها على صيغة الاسم لأن صفاته ثابتة دائمة لاتقبل أن تزول ثم تتجدد، ولذا لايصح هنا أن يقال: وهو خير من يحكم .

والشاهد الثالث: قوله تعالي: (وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (البقرة ٢١٣ والنور ٤٦) أورد الدكتور إبراهيم هذه الآية

---

(١) التحرير والتنوير ٤/١٢٢ .

لنقارن بين التعبير بالمضارع فيها وهو (يهدى) والتعبير بالاسم (هاد) فى قوله تعالى (وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً ونَصِيراً) (الفرقان ٣١). وإيثار المضارع في الآية الأولى للدلالة على التجدد والاستمرار، أى أن هدايته تعالي لخلقه هداية متجددة ومستمرة، نراها تتجدد شيئاً فشيئاً ولحظة فلحظة، وهل يمر يوم على ظهر البسيطة دون أن يهدى الله فيه أحدا إلى الصراط المستقيم، إن أفواج المهتدين متوالية ومتتابعة؛ ولهذا التجدد المستمر الذى يتحول به الناس من الضلال إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، استخدم القرآن الكريم الفعل المضارع (يهدى) دون الاسم .

والتعبير بالاسم (هاد - نصير) في قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَي بِرَبِّكَ هَادِياً ونَصِيراً) (الفرقان ٣١) فيه دلالة على الثبوت والدوام علي هاتين الصفتين (الهداية والنصر)، وهذا المعنى الذى يفيده الاسم يلائم المقام، لأنه إذا كان الهادى والنصير الذي يقف بجوار الرسول صلى الله عليه وسلم ثابتاً علي هاتين الصفتين ودائماً عليهما كان ذلك أدعى إلى الطمأنينة وعدم الاعتداد بعداوة المجرمين، والفعل المضارع يقتضى قطع الهداية والنصر ولو لزمن يسير ثم تجديدهما، ولذا كان التعبير بالاسم في هذا المقام هو البلاغة، فالآية (وعد كريم له عليه السلام بالهداية إلى كافة مطالبه والنصر على أعدائه، أى كفاك مالك أمرك، ومبلغك إلي الكمال (هادياً) لك إلى مايوصلك إلى غاية الغايات التي من جملتها تبليغ ماأنزل إليك، وإجراء أحكامه في أكناف الدنيا إلى أن يبلغ الكتاب أجله، (وناصراً لك) عليهم على أبلغ وجه)[1].

ويلاحظ في لغة القرآن[2] أن الفعل (كفي) ورد على هذه الصيغة - أى صيغة الماضى الذى لم يتصل به ضمير ٢٧ مرة، وذكر بعده الاسم منصوباً علي الحال أوالتمييز فى ٢٦ مرة، ولم يذكر بعده الاسم المنصوب على الحال أو التمييز إلا مرة واحدة في قوله تعالى (وَكَفَي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ القِتَالَ)

---

(١) روح المعانى ١٩/١٤).

(٢) ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن : (كفى) .

(الأحزاب ٢٥).وعلي ذلك فإن المضارع لم يذكر بدلاً من الاسم بعد (كفى) في أى من المواضع الستة والعشرين؛ لأنه لاوجه لذكره في هذه المواضع أصلاً، ومن ثم فالمقارنة التى يريدها منا الدكتور إبراهيم هنا لاتصح، ولو كانت تصح لوردت في القرآن الكريم ولو في موضع واحد!!

والشاهد الرابع: قوله تعالى **(واللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ واللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)** (البقرة ٢٤٧) أراد منا الدكتور أن نقارن بين التعبير بالمضارع (يؤتى) فى هذه الاية والتعبير بالاسم (المؤتون) فى قوله تعالى في الحديث عن ظلم الذين هادوا: **(لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ مِنْهُمْ والْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بما أُنْزِلَ إليكَ ومأأُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ والْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ والْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ والْمُؤْمِنُونَ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ أولئكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً)** (النساء ١٦٢).

وتأبى هذه المقارنة إلا أن تؤيد ماقرره البلاغيون من فرق بين الفعل المضارع والاسم فى طبيعة المعنى المستفاد من كل منهما، فالمضارع (يؤتى) فى الآية الأولى يدل على التجدد والاستمرار، أى التجدد في إيتاء الملك، ونقله من ملك إلى ملك، ومن سلطان إلى سلطان، فالملك في تنقل متجدد، ينزع من ملك، ليؤتى إلى ملك آخر، فلما كان ذلك متجدداً جاءت العبارة عنه بالمضارع هنا وفي كثير من الآيات، كما في قوله تعالي **(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ)** (آل عمران ٢٦).

والتعبير بالاسم فى الآية (والمؤتون الزكاة) دال علي الثبوت والدوام، وهذا المعنى ملائم لمقام المدح، أعنى مدح الراسخين فى العلم من أهل الكتاب والمؤمنين منهم بالكتب السماوية كلها والمقيمين الصلاة والمؤتين الزكاة والمؤمنين بالله واليوم الآخر، فمن تمام هذا المدح أن تكون تلك الصفات السابقة ثابتة فيهم ومتأصلة ودائمة لاتنقطع، وهذا مايفيده التعبير بالاسم في تلك الصفات كلها.. ومن بديع نظم الآيات أنها جمعت لهذه الزمرة المصطفاة من الذين هادوا المدح بأكثر من طريق = منها الاستدراك بـ(لكن) الذى قال عنه أبو حيان:

(مجيئ لكن هنا في غاية الحسن، لأنها داخلة بين نقيضين وجزائهما، وهم: الكافرون والعذاب الأليم، والمؤمنون والأجر العظيم) [١] = ومنها القطع إلي المدح في (المقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة) وهو باب واسع فى اللغة كثير المحاسن [٢] = ومنها استخدام صيغ الألفاظ التى تثبت لهم تلك الصفات الحميدة على جهة الثبوت والدوام المدلول عليها بالاسم .

والشاهد الخامس: قوله تعالى: **(يَاأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لاتَكُونُوا كَالذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنا مَامَاتُوا ومَاقُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ واللَّهُ يُحْيِى ويُمِيتُ واللَّهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)** (آل عمران ١٥٦)

يرى الدكتور إبراهيم أن الفعل (يحيى) في الاية لايدل علي التجدد والاستمرار، وقارنه بالاسم(محيى) فى قوله تعالى **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذا أَنْزَلنا عَلَيها المَاءَ اهْتَزَّتْ ورَبَتْ إِنَّ الذِى أَحْيَاها لَمُحْيِى المَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَئٍ قَدِيرٌ)** (فصلت ٣٩).

والتعبير في الآية الأولي بالمضارع (يحيى ويميت) فيه دلالة على التجدد والاستمرار، لأن هذه القدرة الإلهية نراها متجددة أمام أعيننا فى كل لحظة، أحياء يولدون ليستقبلوا الدنيا ويفتتحوا كتاب العمر، وأموات يرحلون عنا بعدما طويت صحائفهم.. وهذه القدرة المتجددة يناسبها التعبير بالفعل المتجدد (يحيى - ويميت) .

والتعبير بالاسم في الآية الثانية (محيى) دون الفعل المضارع فى غاية المناسبة، لأنه يكشف عن صفة من صفات الله، وصفاته سبحانه ثابتة دائمة والاسم هو الذى يعطى هذا المدلول .

والشاهد السادس: قوله تعالى: **(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ البَرِّ والبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانا مِنْ هَذِه لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أنتُمْ تُشْرِكُونَ)**

---

(١) البحر المحيط: ٤/١٣٤ .

(٢) ينظر الكشاف: ١/٥٨٢.

(الأنعام ٦٣، ٦٤) وضع الدكتور الفعل (ينجيكم) من جملة (قل الله ينجيكم) ليقارن بالاسم (منحوك) فى قوله تعالى (**ولما أن جاءت رسلنا لوطاً سيئ بهم وضاق بهم ذرعاً وقالوا لاتخف ولاتحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين**) (العنكبوت ٣٣).

و المضارع فى الآية الأولى يدل على تجدد النجاة، أى أنه سبحانه هو الذى ينجيهم من كل كرب يقعون فيه، نجاة متجددة بتجدد الكروب، فكلما نزل بهم كرب جدد الله لهم النجاة منه، والمضارع هو الذى يدل على هذا المعنى، ولو جاء بالاسم لما أفاد تجدد نعمة الله عليهم بالنجاة مرة بعد مرة .

واختيار الاسم فى الآية الثانية ملائم للسياق الذى جاء فيه أتم ملاءمة، لأن الملائكة لما أن جاءوا لوطاً- عليه السلام - وضاق بهم ذرعاً، لأنه عليه السلام (قد عجز عن مدافعة قومه حتى آلت به الحال إلي أن قال «**لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ**») (هود ٨٠).[1] فلجأ الملائكة الكرام إلي تأنيسه عليه السلام وطمأنته (وقالوا لاتخف ولاتحزن) أى لاتخف علينا من إيذاء قومك ولاتخف علي نفسك وأهلك، ولاتحزن علي تكذيب قومك، ثم وعدوه بالنجاة (**إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ..**) زيادة فى تأنيسه وطمأنته، وشأن من يعد بشئ أن يبرز نفسه في صورة الثابت علي وعده الدائم عليه، ولذا اختاروا الاسم (منجوك) بدلامن الفعل (ننجيك) لأن المضارع يقتضى التجدد بعد انقطاع ولو كان يسيراً، وهذا الانقطاع لايلائم المقام - ولو رجعنا إلي نسق أوسع للآية لرأينا أن التعبير باسم الفاعل كثر في هذا النسق، فلما جاءت الملائكة إبراهيم (**قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ**) (العنكبوت ٣١) وقالوا للوط (إنا منجوك وأهلك..) (العنكبوت ٣٣) ثم قالوا له (**إِنَا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**) (العنكبوت: ٣٤). فأوثر التعبير باسم ا لفاعل في هذا النسق ثلاث مرات (مهلكوا - منجوك - منزلون) فالملائكة ثابتون دائمون علي إهلاك قومه وإنزال العذاب بهم، وثابتون دائمون على نجاة لوط وأهله... فالاسم هنا في غاية الملاءمة .

---

(١) روح المعانى: ٢٠/١٥٥ .

الشاهد السابع: قوله تعالي (**واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) وهو جزء من الآيتين ١٠٧ سورة التوبة و ١١ سورة الحشر، والسياق في (التوبة) «**وَالذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وكُفْراً وتَفْرِيقاً بَينَ المُؤْمِنِينَ وإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ ورَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحُسْنَى واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**) والسياق في (الحشر): «**أَلَمْ تَرَ إِلي الذين نَافَقُوا يَقُولُونَ لإِخْوَانِهِمُ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَنُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ واللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**».

واختيار المضارع (يشهد) فى الآيتين دال على التجديد والاستمرار، وهذا ملائم لسياق الآيتين، ففى الأولى يقسم أصحاب مسجد الضرار أنهم لايريدون ببناء المسجد إلا الحسنى أى أداء الصلوات والتوسعة على المسلمين فى مساجدهم ونحو ذلك، وهم يجددون هذا الحلف مرة بعد مرة، ولذا اختار القرآن الفعل المضارع (ليحلفن)، أى يكررون الحلف المؤكد، ويجددونه، وهذا يلائمه في تكذيبهم أن تجدد شهادة الله على كذبهم بتجدد حلفهم وأيمانهم، فاختار المضارع (يشهد) .. وكذا يقال فى الآية الثانية .

وأما اختيار الاسم (شاهد) فى الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم (**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً ومُبَشِّراً ونَذِيراً وَدَاعِياً إِلي اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً**) (الأحزاب ٤٥، ٤٦). فهو فى غاية الدقة، لأنه يدل على الثبوت والدوام، فهو صلي الله عليه وسلم ثابت في رسالته على هذه الصفات (الشهادة والتبشير والإنذار والدعوة إلي الله وإنارة حياة الناس بهدايتهم إلى ربهم) فتلك من مهامه الملازمة، وصفاته الدائمة فى تبليغ رسالته. ومما يلفت فى هذه الأحوال الخمسة (شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً وسراجاً) أن ثلاثاً منها على صيغة اسم الفاعل، ويلاحظ أنه تعالى لم يقل (ومنذراً) كما قال (ومبشراً) لعموم الإنذار وخصوص التبشير، ولذا قال: (ونذيراً) بصيغة المبالغة[1].

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٢/٤٥ .

الشاهد الثامن: قوله تعالى: **(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)** (المجادلة ١) أورد الدكتور هذه الآية للمقارنة بين المضارع (يسمع) فيها وبين الاسم (السميع) فى قوله تعالى (وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ) (البقرة ١٣٧، الأنعام ١٣، ١١٥ والأنبياء ٤، والعنكبوت ٥، ٦٠) .

وإيثار المضارع فى آية المجادلة قال عنه الألوسى: (وصيغة المضارع للدلالة على استمرار السمع حسب استمرار التحاور وتجدده) (١).

وإيثار الاسم فى قوله (وهو السميع العليم) لأنه يعبر عن صفة من صفات ذاته سبحانه، وصفاته ثابتة دائمة، فهو السميع العليم دائماً، أزلاً، وأبداً .

تلك محاولة لتطبيق المقارنة التى أرادها الدكتور من القارئ بين التعبير بالفعل المضارع والتعبير بالاسم فى هذه الشواهد القرآنية الثمانية، ولو أن الدكتور بين لنا وجه استشهاده بالآيات لفهمنا مراده، ولكنه وكلنا إلى أنفسنا، وأحسن بنا الظن، فحاولت ماأقدر عليه، فانتهى بى لاإلى مايريد، بل إلى عكس مايريد، فكانت الآيات - عندى - حجة للبلاغيين لاعليهم .

سابعاً: مع رأيه فى (المسند) و(المسند إليه) إذا كانا معرفتين:

قال الدكتور إبراهيم أنيس فى حديثه عن التعريف والتنكير فى الجمل الاسمية (ج - جمل اسمية يكون فيها كل من المسند والمسند إليه معرفه، **وقد حاول عبد القاهر أن يفرق بين مثالين من صنعه، هما: زيد المنطلق، المنطلق زيد. فلقى من العنت والمشقة ماأجهده وأجهدنا معه.** ويظهر أن صعوبة تمييز المسند من المسند إليه فى مثل هذه الجمل هو الذى ألجأ عبد القاهر وغيره إلى **تكلف الشطط** في علاجها .

(ويبدو لى أن المسند إليه فى هذه الحالة هو المتحدث عنه، أى الشخص أو الشئ الذى نُعْنَى بالحديث عنه، ونهدف إلى نسبة صفة إليه. ففى قوله تعالى **(إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ**

---

(١) روح المعانى ٣/٢٨).

النَّارُ)[1] تهدف الآية الكريمة إلى الحديث عن الكافرين ومأوى الكافرين فى الآخرة؛ ولذا نعد (مأواه) فى الآية المسند إليه، و(النار) المسند. فإذا أخذ الحديث صورة أخرى كتلك التى في سورة الأنعام، وهى: **(قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَاشَاءَ اللَّهُ)**[2] لم يمنع هذا من اعتبار (مثواكم) فى الآية مسنداً إليه، و(النار) مسنداً. **ونلحظ أن كلمة (مأوى) تتقدم دائماً فى الآيات القرآنية، فى حين أن كلمة (مثوى) تتأخر، لالسبب ملحوظ سوى الرغبة فى المغايرة بين الأساليب .**

(وهكذا نرى أن التركيب بين المسند والمسند إليه حين يكون كل منهما معرفة لايعدو أن يكون أن يكون أمر أسلوب، إذ لايكاد المعنى يختلف بتأخير أحدهما أو تقديمه .

(انظر أيضاً إلى قول يوسف لإخوته: «**أَنَا يُوسُفُ وهَذَا أَخِى قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَينا**»[3] فلا شك أن المسند إليه هنا هو الضمير «أنا»؛ لأنه يشير إلى شخص معين ماثل أمامهم يرون من سماته ومن ملامحه ومن زيه مالايتطرق إليه شكهم، وتهدف الآية إلى أن تصف ذلك الشخص الماثل أمامهم بوصف جديد يجهلونه وهو أن اسمه يوسف. كذلك قوله «هذا أخى»، فقد كانوا يشاهدون «بنيامين» ويرونه بأعينهم ويعرفون كل سماته، غير أنهم كانوا يجهلون أخوته للشخص الآخر الواقف أمامهم نرى من هذا أن معرفة ظروف الكلام وملابساته تيسر لنا التمييز بين المسند والمسند إليه فى مثل هذه الجمل)[4].

هذا هو رأى الدكتور في هذه المسألة، ولى معه وقفات؛ فى أربع نقاط :

١ - قوله عن عبد القاهر إنه لقى من العنت والمشقة فى هذه المسألة ماأجهده وأجهدنا معه، ثم لم يكتف باتهامه لعبد القاهر فقط، بل أضاف إليه

---

(١) المائدة: ٧٢ .

(٢) الأنعام: ١٢٨ .

(٣) يوسف: ٩٠ .

(٤) من أسرار ا للغة: ص٣٢٣، ٣٢٤ .

(غـيـره) من البـلاغـيين الذين تكلفـوا الشطط فى عـلاج هـــذه المسـألة والواقع أن الإمام عبد القاهر نفسه صرح لنا بصعوبة هذه المسألة، فقال: (واعلم أنه ربما اشتبهت الصورة في بعض المسائل من هذا الباب، حتى يظن أن المعرفتين إذا وقعتا مبتدأ وخبراً، لم يختلف المعنى فيهما بتقديم وتأخير) (١)، ثم قال: (وهو موضع غامض) (٢).

إن الإمام عبد القاهر شغوف جداً بمثل هذه الأساليب المتشابهة التى لايظن أن بينها فروقاً فى المعنى، ولذلك هو لايبحث فى الأمور الهينات ولاالمسائل الواضحات، وإنما ينقب عن مثل هذه الدقائن التى تحتاج إلى عقل ناضج وفهم واع وبصيرة بأسرار هذه اللغة!! أفيعاب عليه هذا؟ ويقال إنه لقى العنت والمشقة وتكلف الشطط ؟

٢ - إذا نظرنا إلى الرأى الذى انتهى إليه الدكتور إبراهيم بعدما رفض رأى الإمام عبد القاهر وجمهور البلاغيين نراه يقول: (ويبدو لى أن المسند إليه في هذه الحالة هو المتحدث عنه، أى الشخص أو الشئ الذى نعنى بالحديث عنه، ونهدف إلى نسبة صفة إليه.. إلخ) وهذا بعينه هو رأى الإمام عبد القاهر الذى يقول فيه: (وههنا نكتة يجب القطع معها بوجوب هذا الفرق أبداً، وهى أن المبتدأ لم يكن مبتدأ لأنه منطوق به أولاً، ولاكان الخبر خبراً لأنه مذكور بعد المبتدأ، بل كان المبتدأ مبتدأ لأنه مسند إليه ومثبت له المعنى، والخبر خبراً لأنه مسند ومثبت به المعنى) (٣). فهذا الذى (يبدو للدكتور) هو ماقرره عبد القاهر وأثبته منذ قرون!!!

---

(١) دلائل الإعجاز: ص١٨٧ .

(٢) دلائل الإعجاز: ص١٨٨ .

(٣) دلائل الإعجاز: ١٨٩ .

وعندما طبق الدكتور رأيه فى تحديد المسند والمسند إليه حين يكونان معرفتين على قوله الله - عز وجل - «وَمَأْوَاهُ النَّارُ»[١]، وقوله: «النَّارُ مَثْوَاكُمْ»[٢]= جعل المسند إليه في الآيتين هو: (مأواه - ومثواكم)، والمسند فيهما هو لفظ (النار) ولاعبرة - عنده - بالتقديم والتأخير .

ورأيه صحيح في الآية الأولى،[٣] دون الثانية، وهى قوله تعالى: (النَّارُ مَثْوَاكُمْ) حيث رأى الدكتور أن المسند إليه فى الآية هو لفظ (مثواكم) والمسند هو لفظ (النار)، والعكس هو الصحيح، فالمسند إليه فى الآية لفظ (النار) والمسند لفظ (مثواكم)[٤]، أى أنه تعالى حكم على النار بأنها مثواهم، فكأن النار فى هذه الآية محكوم عليها بأن تكون مثوى للظالمين من الجن وأوليائهم من الإنس الذين استمتع بعضهم ببعض في الدنيا! عقوبة لهم؛ ولذا ورد في الحديث أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: «**تَحاجَّتِ الجنةُ والنارُ، فقالت النار: أُوثِرْتُ بالمُتَكَبِّرِينَ، والمُتَجَبِّرِينَ، وقالت الجنة: مالى لايدخلنى إلا ضُعَفَاءُ الناس وسَقَطُهُم؟ قال الله - تبارك وتعالى - للجنة: أنت رحمتى، أرحمُ بك مَنْ أشاءُ من عبادى، وقال للنار: إنما أنت عذابى، أُعَذِّبُ بك من أشاءُ من عبادى، ولكل واحدةٍ منهما مِلْؤُها...**»[٥].

٣ - قول الدكتور فى النص السابق: (ونلحظ أن كلمة «مأوى» تتقدم دائماً فى الآيات القرآنية فى حين أن كلمة «مثوى» تتأخر؛ لالسبب ملحوظ

---

(١) المائدة: ٧٢ .

(٢) الأنعام: ١٢٨ .

(٣) ينظر الجدول فى إعراب القرآن لمحمود صافى: ٣/٤١٧ ط. دار الرشيد. ط. ثالثة ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

(٤) ينظر المصدر السابق: ٤/٢٨٢ .

(٥) رواه البخارى فى كتاب التفسير من سورة ٥٠ق): ٣/١٩٢ ط/ دار نهر النيل .

سوى الرغبة فى المغايرة بين الأساليب)، فيه نظر = من حيث مافيه من استقراء للآيات القرآنية التى ورد فيها لفظا: (مأوى - ومثوى)= ومن حيث التعليل الذى ذكره الدكتور لهذه الملاحظة:

أ - **فأما من حيث الاستقراء** فهو استقراء ناقص؛ لأن لفظ (مأوى) ورد في الذكر الحكيم علي صورتين :

الصورة الأولى: أن يكون مضافاً إلى الضمير، حيث أضيف إلى ضمير المخاطبين (مأواكم) ٣ مرات = وإلى ضمير المفرد الغائب (مأواه) ٣ مرات = وإلى ضمير جماعة الغائبين (مأواهم) ١٢ مرة. وفى هذه المواضع كلها تقدم لفظ «مأوى» على «النار» أو «جهنم». فملاحظة الدكتور صادقة على هذه الصورة[1].

والصورة الثانية: أن يكون معرفاً بـ«أل»، وقد ورد علي هذه الصورة في أربعة مواضع فى القرآن الكريم: قال تعالى **(فَلَهُمْ جَنَّاتُ المَأْوَى نُزُلاً بما كَانُوا يَعْمَلُونَ»** (السجدة: ١٩)، **«عِنْدَهَا جَنَّةُ المَأْوَى»** (النجم: ١٥)، **«فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى»** (النازعات: ٣٩)، **«فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى»** (النازعات: ٤١)، وملاحظة الدكتور لاتصدق علي هذه الصورة؛ لأن لفظ (مأوى) مؤخر دائماً فى هذه الحالة .

ولفظ (مثواكم) لم يرد في القرآن الكريم إلا فى موضعين: الموضع الأول فى الآية التى استشهد بها الدكتور = وهى آية سورة الأنعام **(وَيَومَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يامَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الذى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيها إلا مَاشاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)** (الأنعام ١٢٨)= والموضع الثانى: قوله تعالى: **(واللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ)** (محمد: ١٩) .

---

(١) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - وضعه محمد فؤاد عبد الباقى: (أوى) ط. مطابع الشعب ١٣٧٨هـ.

ب - **وأما من حيث التعليل؛** فقد علل الدكتور هذه الملاحظة بأنها لم تكن إلا لمجرد المغايرة فى الأساليب، وهو تعليل لايكفى فى الكشف عما وراء هذه التراكيب من أسرار، وقد رفض كثير من علماء البلاغة تعليل مثل هذه المواضع في القرآن الكريم بالتفنن فى الأساليب أو مراعاة الفاصلة القرآنية، ورأى المحققون منهم أنه لابد مع هذه العلة اللفظية الصوتية من غرض معنوى، وسيأتى بيان ذلك في هاتين الآيتين إن شاء الله[1].

٤ - **جعل الدكتور الترتيب بين المسند والمسند إليه حين يكون كل منهما معرفة أمر أسلوب، ولايختلف المعنى عنده بتقديم أحدهما أو تأخيره؛** وعلي هذا فلا فرق - عنده - بين أن نقول: (زيد المنطلق) و(المنطلق زيد)، ولافرق عنده بين: (أنت الحبيب) و(الحبيب أنت)، ولافرق عنده بين (زيد أخوك) و(أخوك زيد) .

هذا رأيه، وهو مخالف لما قرره الإمام عبد القاهر والبلاغيون من بعده، قال الإمام عبد القاهر: (وأما قولنا: «المنطلق زيد»، والفرق بينه وبين أن نقول: «زيد المنطلق» فالقول في ذلك أنك وإن كنت ترى في الظاهر أنهما سواء من حيث كان الغرض في الحالتين إثبات انطلاق قد سبق العلم به لزيد، فليس الأمر كذلك، بل بين الكلامين فصل ظاهر!!

(وبيانه أنك إذا قلت: «زيد المنطلق»، فأنت فى حديثِ انطلاقٍ قد كان، وعَرَف السامع كونه، إلا أنه لم يعلم أمن زيد كان أم من عمرو؟ فإذا قلت: «زيد المنطلق» أزلت عنه الشك وجعلتَه يقطع بأنه كان من زيد، بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز .

(وليس كذلك إذا قدمت «المنطلق» فقلت: «المنطلق زيد»، بل يكون المعنى حينئذ على أنك رأيت إنساناً ينطلق بالبعد منك، فلم تُثْبِتْهُ، ولم تعلم

---

(١) ينظر ص٥٧٧ من البحث .

أزيد هو أم عمرو، فقال لك صاحبك: «المنطلق زيد»، أى الشخص الذى تراه من بُعْدٍ هو زيد) (١).

وهذا فرق في غاية الدقة واللطف؛ وقد التقطه البلاغيون بعد عبد القاهر، وزادوه إيضاحاً وشرحاً، فقال «سعد الدين التفتازانى»:(والضابط في هذه التقديم أنه إذا كان للشئ صفتان من صفات التعريف، وعرف السامع اتصافه بإحداهما دون الأخرى، فأيهما كان بحيث يعرف السامع اتصاف الذات به يجب أن تقدم اللفظ الدال عليه وتجعله مبتدأ. وأيهما كان بحيث يجهل اتصاف الذات به يجب أن تؤخر اللفظ الدال عليه وتجعله خبراً، فإذا عرف السامع زيداً بعينه واسمه ولم يعرف اتصافه بأنه أخوه وأردت أن تعرف ذلك قلت: «زيد أخوك»، وإذا عرف أخا له، ولم يعرفه على التعيين، وأردت أن تعينه عنده قلت: «أخوك زيد» ولايصح: «زيد أخوك») (٢).

وكلام العلامة «سعد الدين» في غاية الدقة، وخلاصته (أنك تبتدئ بالأعرف) وهى قاعدة مهمة لدلالتها علي أن (ترتيب الكلمات في العبارة يتبع أحوال النفس ومايثار فيها، أو مايمكن أن يثار فيها من معان وصور، فإذا كانت كلمة (البحر) تثير فى النفس (الماء) لا (النقع) وجب أن تسبق في الترتيب كلمة (الماء) استجابة لهذه الإثارة التى نهضت بها كلمة أو ترتيب سابق، فإذا قلت: (نقعه ماؤه) كنت قد أخرت فى اللفظ ماهو مقدم فى النفس، وتلك مجافاة تنبو بها الكلمات. وهذا مبحث جليل كما ترى، وهو يتجه في بحث بناء الأسلوب إلى أصوله ومنابعه الداخلية) (٣).

---

(١) دلائل الإعجاز: ص١٨٦ .

(٢) المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازانى: ١٧٦-١٧٧ مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ نشر المكتبة الأزهرية .

(٣) خصائص التراكيب: ص٢٤٧، ٢٤٨ .

وإذا تأملنا فى آية سورة الأنعام (وَيَومَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يامَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الإِنْسِ رَبَّنا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنا أَجَلَنا الذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَاشَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ)[1] نجد أن الآية تدور أحداثها فى يوم الحشر (ويوم نحشرهم جميعاً)، ومن أهوال هذا اليوم رؤية (النار) كما قال تعالى: (وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوها وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً)[2]، وقوله (إِذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وزَفِيراً)[3]، فناسب هذا المقام الابتداء بـ(النار)؛ لأنها أعرف للمخاطبين فى هذا الوقت، فكأنه - تعالى - يقول لهذا الصنف من الجن والإنس يوم القيامة: هذه النار التى ترونها شاخصة أمام أعينكم هى مثواكم .

كما أن في الابتداء (بالنار) مناسبة لطيفة لتقديم (الجن) على (الإنس)؛ لأن (الجن) مخلوق من (النار) فناسبه الابتداء بها. وفيه أيضاً تعجيل للمساءة بذكر ما يسوؤهم ويقذف الرعب فى قلوبهم.

هذه خلاصة الفرق بين مثل هذه الأساليب التى يظن أنها متساوية، وأنه لافرق بينها، ولكن عند التحقيق نرى هذا الفرق الدقيق الذى أنكره الدكتور إبراهيم أنيس وجعله من قبيل التكلف والمغالاة.

ثامناً: مع رأيه فى أسلوب الاعتراض فى اللغة :

لم يوفق الدكتور إبراهيم أنيس فى فهم طبيعة أسلوب الاعتراض فى اللغة حين قال :«**وتأبى اللغة العربية بوجه عام الاعتراض بين جملها**

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٨ .

(٢) سورة الكهف: ٥٣ .

(٣) سورة الفرقان: ١٢ .

إلا بتلك الجمل الدعائية من مثل : لافُضَّ فُوه- وَيْلُ أُمِّه- رحمة الله عليه- أيَّده الله»[1]. والحقيقة أن اللغة العربية لا تأبى الاعتراض بين جملها بغير الجمل الدعائية، بل إن هذا اللون من الاعتراض كثير فى اللغة وبخاصة فى القرآن الكريم، فله فيه سلطان قاهر وأسرار عجيبة، حتى قال العلوى :«والاعتراض فى القرآن الكريم أكثر من أن يحصى»[2]، وقال ابن جني :«والاعتراض فى شعر العرب ومنثورها كثير وحسن، ودال على فصاحة المتكلم وقوة نَفْسِه، وامتداد نَفَسِه»[3].

والاعتراض بين الجمل فى القرآن الكريم له سلطان قاهر وأسرار عجيبة، وليست شواهده مقصورة على تلك الجمل الدعائية التى ذكرها الدكتور، ولنأخذ على سبيل المثال قول الله تعالى :

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ. فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً فَإِذا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ)[4]، فالآيتان معترضتان بين الآيات التى تفصل أحكام المطلقات والمتوفى عنهن أزواجهن ولنراجع السياق قبل الآيتين وبعدهما، فقبلهما قوله تعالى فى شأن المطلقات: **(لاجُنَاحَ عَلَيكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى المُوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعاً بالمعرُوفِ حَقّاً عَلَى المُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الذِى بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلا تَنْسَوا الفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)**. **(البقرة : ٢٣٦، ٢٣٧)**.

---

(١) من أسرار اللغة : ص ٣٢٨.

(٢) الطراز العلوى: ٢/ ١٧٢.

(٣) الخصائص لابن جني : ١/ ٣٣٥ تحقيق الأستاذ / محمد على النجار ط. دار الهدى.

(٤) سورة البقرة : (٢٣٨-٢٣٩).

ثم ذكر عز وجل آيتى المحافظة على الصلوات فى قوله (حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاةِ الوُسْطَى...) (البقرة: ٢٣٨، ٢٣٩) وبعد هذا الاعتراض عاد النسق إلى ذكر أحكام المتوفى عنهن أزواجهن فقال تعالى: **(وَالذِينَ يُتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إلى الحَوْلِ غَيرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِى أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ* وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى المُتَّقِينَ)** (البقرة: ٢٤٠، ٢٤١).

فأى مناسبة سوغت المجئ بالأمر بالصلاة والمحافظة عليها وسط هذا النسق المتصل؟ لاشك فى (أن توسط الأمر بالمحافظة على الصلوات مشعر بما يجب على المؤمن إذا وقع فى مشاغل أحكام النساء من الطلاق والعدة ونحو ذلك، إذ يجب عليه ألا تشغله تلك الأحكام عن الصلوات، فناسب توسط الاعتراض توسط الصلاة وتخللها بين تلك المشاغل، وقطعها الصوارف عن باب الله)[1].

ومن نماذج الاعتراض فى القرآن الكريم قوله تعالى: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُمْ شَهِيداً)** (البقرة: ١٤٣) فهذه الآية اعتراض بين آيات تحويل القبلة فإن قبلها قوله تعالى: **(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَاوَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التِى كَانُوا عَلَيهَا قُلْ لِلَّهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)** (البقرة: ١٤٢) وبعد هذه الآية جاءت الآية المعترضة التى تعلن وسطية هذه الأمة: **(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً...)** وبعد هذا الاعتراض عاد السياق إلى الحديث عن تحويل القبلة فقال تعالى: **(وَمَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ التِى كُنْتَ عَلَيها إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...)** (البقرة: ١٤٤، ١٤٥).

---

(١) الاعتراض فى القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية: رسالة (ماجستير) مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة: ص ٧٣، إعداد سلامة جمعة داود.

قال الألوسي :(«وكذلك جعلناكم أمة وسطا» اعتراض بين كلامين متصلين، وقعا خطابا له (صلى الله عليه وسلم)، استطرادا لمدح المؤمنين بوجه آخر، أو تأكيدا لرد الإنكار بأن هذه الأمة وأهل هذه الملة شهداء عليكم يوم الجزاء، وشهادتهم مقبولة عندكم، فأنتم إذاً أحق باتباعهم والاقتداء بهم، فلا وجه لإنكاركم عليهم)[١].

والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى وتدل على أن ما قاله الدكتور/ إبراهيم أنيس من أن اللغة العربية تأبى الاعتراض بين جملها بغير الجمل الدعائية نحو: رحمة الله عليه- لافُضَّ فُوه... كلام لم يحالفه التوفيق .

تاسعاً: مع رأيه بأن المفعول لايصح أن يسبق ركنى الإسناد :

رأى الدكتور إبراهيم أنه لايصح تقديم المفعول على ركنى الإسناد، فقال : (ولست أغالى حين أقرر هنا أن المفعول لا يصح أن يسبق ركنى الإسناد فى الجمل المثبته، كما يزعم أصحاب البلاغة فى تلك الأمثلة المصنوعة من نحو: زيدا ضربت، زيدا ضربته!! أما التقديم فى مثل الآيات القرآنية :«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» [٢]«فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ»[٣]، «وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ»[٤]، «خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ»[٥]، «فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ»[٦]- فالأمر فيه لايعدو أن يكون رعاية لموسيقى الفاصلة القرآنية؛ فهى إذن أشبه بالقافية الشعرية التى يحرص الشاعر على موسيقاها كل الحرص)[٧].

---

(١) تفسير روح المعانى للإمام الألوسى: ٣/٢ ط. دار الفكر ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

(٢) الفاتحة : ٥.

(٣) العنكبوت: ٥٦.

(٤) البقرة : ٥٧.

(٥) الحاقة: ٣٠.

(٦) الضحى: ٩، ١٠.

(٧) من أسرار اللغة: ص ٣٣٣.

انتهي كلام الدكتور إبراهيم، وإذا كان :«زيدا ضربت» و«زيدا ضربته» من الأمثلة المصنوعة التى وضعها البلاغيون ليثبتوا لنا (زعمهم) جواز تقدم المفعول على ركنى الإسناد، فهل الآيات القرآنية التى استشهد بها الدكتور من صنع البلاغيين؟

ولكن الدكتور حين لم يجد سبيلا أمام هذه الشواهد القرآنية الصادحة بتقديم المفعول لجأ إلى القول بأن هذا التقديم فى الآيات لامعنى له، لأنه أمر شكلى لمجرد المحافظة على موسيقى الفواصل القرآنية.. وبهذا أنكر دلالة هذا التقديم على القصر فى مثل قوله- عز وجل-**«إياك نعبد وإياك نستعين»** وصار التقديم فى هذه الآية- كما يرى الأستاذ- يستوى هو والتأخير من حيث المعنى، فلا فرق بين الآية الكريمة وبين قولنا: نعبدك ونستعين بك. وهذا بعيد غاية البعد!!

وماذا يقول الدكتور فى المفعول المقدم بعيداً عن الفاصلة كما فى : (أفغير دين الله يبغون) آل عمران ٨٣، (قل الله عبد مخلصا له دينى) الزمر ١٤، (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) الزمر ٦٦.

عاشراً: إنكاره دلالة النفى والاستثناء ودلالة إنما على القصر:

أنكر الدكتور إبراهيم أنيس دلالة النفى والاستثناء على القصر، كما أنكر دلالة «إنما» عليه، وهذا من أكبر الغرائب التى ذهب إليها، لأن دلالة هذين الأسلوبين على القصر من المسلمات اللغوية، ومن البديهيات الفطرية التى يعلمها كل الناس.

وقد وقف الدكتور/محمد أبو موسي مع الدكتور إبراهيم أنيس وقفة طويلة ومتأنية فى هذه المسألة وناقشه فيها مناقشة علمية رائعة.

وحسبى هنا أن أعرض- بإيجاز شديد- خلاصة هذه المناقشة، ولا أزيد، ففيها الكفاية والسداد:

(١) إنكاره دلالة النفى والاستثناء على القصر:

قال الدكتور إبراهيم أنيس فى هذه المسألة :«والذى قد يثير اهتمام الباحث اللغوى المحقق هو استعمال (إلا) حين تسبق بالنفى، وهو ذلك الاستعمال المسمى عند البيانيين بالقصر مثل **(وما محمد إلا رسول)**[١]، **فقد دق على أذهان بعضهم معنى هذا الاستعمال، ومواضع الكلام التى تتطلبه، واكتفى أهل البيان بأن عرضوه علينا كوسيلة من وسائل القصر، مثلها فى هذا مثل (إنما أنت نذير)**[٢]**، حتى جاء الجرجانى وحاول التفرقة بين الاستعمالين فى كتابه دلائل الإعجاز**[٣].

كان هذا النص الخطير هو أول خيط التقطه الدكتور أبو موسي وأدار حوله مناقشته مقدما بين يديه، ثم معقبا عليه، فقدم بين يديه بقوله : «**لم نقرأ دراسة أنكرت دلالة النفى والاستثناء على القصر إلا ما كتبه المرحوم إبراهيم أنيس فى كتابه من أسرار اللغة فى فصل:** منطق اللغة، وفى مسألة النفى اللغوى، **ويبدو أن الأستاذ قد أضاف هذا البحث إلى كتابه بين البحوث التى أضافها فى الطبعة الثانية، وهذا يعنى أنه أدار فى نفسه الفكرة، وعكف عليها، ورأى من تحقيق الفائدة العلمية للكتاب أن يضاف إليها. والمرحوم إبراهيم أنيس من الذين أثاروا أفكارا كثيرة حول كثير من القضايا اللغوية، واستجاشوا نفرا من الدارسين فى هذا الميدان، ولهذا صار من حقه علينا أن ننبه إلى ما نراه فيما كتب**[٤]».

---

(١) آل عمران: ١٤٤.

(٢) هود: ١٢.

(٣) من أسرار اللغة: ١٨٨.

(٤) دلالات التراكيب : ١٣٠.

ثم عقب الدكتور أبو موسي على النص السابق «ببيان مافيه من استخفاف بعلماء البلاغة الذين عدوا هذا الأسلوب وسيلة من وسائل القصر، كما أن كلام الدكتور إبراهيم يوهم أن علماء البيان قبل عبد القاهر درسوا هذا الأسلوب وجعلوه نظير «إنما» فى الدلالة على القصر حتى جاء عبد القاهر، والحق خلاف ذلك؛ لأنه لم يشغل أحد من البيانيين قبل عبد القاهر بهذا الأسلوب[١].

وخلاصة رأى الدكتور إبراهيم فى هذه المسألة أن هذا الأسلوب لايفيد القصر، وأنه لايعدو أن يكون تأكيدا للكلام وتوضيحا له[٢]، فأغفل دلالة الأسلوب على القصر «وهو المعنى الأهم أو المعنى الأم فى هذا التركيب»، ودلالة الأسلوب عليه دلالة وضعية كدلالة لفظ رجل على معناه، وهى دلالة فطرية حتى لنراها فى كلام الأطفال والعامة، والاستشهاد على صحتها تكلف والخلاف فيها مغالطة[٣].

ثم أورد الدكتور إبراهيم أنيس مجموعة من شواهد البلاغيين فى باب القصر محاولا إبراز مافيه من تأكيد للمعنى وتقوية له، وأن التوكيد هو كل مايفيده النفى والاستثناء فيها، ورد عليه الدكتور أبو موسى بأنه أغفل المعنى الأهم للنفى والاستثناء فى تلك الشواهد، وأن التأكيد الذى يريد الدكتور إبراهيم أن يقصر دلالة الأسلوب عليه يحتاج إلى بيان طريقه، وإظهار كيف كان، وهذا ما لم يحاوله الدكتور وغفل عنه، ولو حاول لما وجد لهذا التأكيد طريقا سوى ما فى الأسلوب من معنى القصر، الذى هو أثبات شيء لشيء ونفيه عما سواه[٤].

---

(١) دلالات التراكيب: ١٣٠.

(٢) المصدر السابق: ١٣١ بتصرف.

(٣) ينظر المصدر السابق: ١٣١، ١٣٢.

(٤) ينظر دلالات التراكيب: ص ١٣٤، ١٣٥.

٢) إنكاره دلالة «إنما» على القصر:

وكما أنكر الدكتور إبراهيم أنيس دلالة النفى والاستثناء على القصر أنكر كذلك دلالة «إنما» عليه، وقال إنها لاتفيد إلا مجرد التوكيد فحسب، مثلها فى ذلك مثل النفى والاستثناء، والفرق بينهما- كما يرى- هو أن النفى والاستثناء تأكيد نفى، و«إنما» تأكيد إثبات.

قال الدكتور/إبراهيم: «أدركنا أن القصر بالنفى مع الاستثناء لايماثل القصر بـ«إنما»، **وأن ما قاله البلاغيون من تساوى الأسلوبين فيه كثير من التجوز ولايكاد يمت لأساليب اللغة بصلة وثيقة**[١].

وعلق الدكتور/محمد أبو موسى على هذا النص الخطير بقوله : «**وليس فى هذا النص إلا الخطأ والنفاجة، أما الخطأ فهو قوله :«ما قاله البلاغيون من تساوى الأسلوبين»؛ لأننا لم نعرف واحدا منهم قال بذلك، بل إن كتبهم المدرسية المبذولة تحرص على بيان مابينهما من فروق من يوم أن تحدثوا عنهما إلى الآن....**

وأما النفاجة، فهى مافى هذا الكلام من ادعاء، وما يوهمه من أن البلاغيين جميعا انخدعوا بما لايمت لأساليب اللغة بصلة، وأنه- رحمه الله- أدرك مابين الأسلوبين، (والنفاجة فى كلامهم: فخر الرجل بما ليس له)[٢].

وجعل الدكتور/ إبراهيم التأكيد بـ«إنما» نظير التأكيد بـ«إن» الناصبة، و«لام» التأكيد، و«القسم» وغيرها من وسائل التأكيد، وقد أبطل الإمام عبد القاهر هذا الوهم الذى ذهب إليه الدكتور إبراهيم أنيس بعد تسعة قرون، قال الدكتور أبو موسى «وكان عبد القاهر- رحمه الله- أشف إدراكا وأكثر وعيا بالدلالة حين ذكر أن انضمام «ما» إلى «إنَّ» - لايعنى أنها أبطلت عملها

---

(١) من أسرار اللغة: ص ١٩٠.

(٢) دلالات التراكيب: ص ١٦٣ بتصرف.

فحسب وأبقت دلالتها على التوكيد كما يفهم من تسميها بالكافة- حتى يصح إلحاق «إنما» بـ«إن» والقسم وغيرها من وسائل التوكيد- وإنما أحدثت «ما» فى دلالة «إن» شيئا غير الذى كان، هو الإثبات والنفى»[١].

حادى عشر: مع رأيه فى أن الخبرية المنفية فى قوة نقيضها المثبت:

يرى الدكتور إبراهيم أنيس أن الجملة الخبرية المنفية فى قوة نقيضها المثبت، وعلى هذا فقولنا :«أنت لاتكذب»- فى رأيه- فى قوة قولنا:«أنت تصدق»[٢]. وقد رد عليه ذلك شيخنا الدكتور/ صباح دراز، فقال:«وهذا خطأ بلاغى؛ لأن لكل كلمة روحا وإيحاء خاصاً،ودلالة معينة، توضع بقدر فى مكانها من جسم التركيب. وتأمل كيف تكون الفوضى التعبيرية لو أبدل الأسلوب المنفى على طوله بمثبت قصير، وأن نضع مكان :«**وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ**»[٣]، القول: «وأن الله يعدل جدا»؟ البلاغة إذن حساسية وذوق متوهج، وفن مرفرف ملاتكى، لاتوزن، ولاتكال، ولا يعقلها إلا العالمون»[٤].

وكون المنفية فى قوة نقيضها المثبت، معناه: أن لكل جملة منهما **(قوة)**، وأن الدكتور قام بقياس قوة كل منهما فوجدها متساوية، فقال: إن الخبرية المنفية **(فى قوة)** نقيضها المثبت... ولو قال: (فى معناها) لكان- مع بعده عن الدقة- شبيها بالصواب، أما أن تكون المنفية **(فى قوة)** نقيضها المثبت، فلا!!

---

(١) دلالات التركيب: ص ١٦٥.

(٢) ينظر من أسرار اللغة: ص ٢٢٣ ومابعدها.

(٣) من الآية ١٨٢ سورة آل عمران، ٥١ سورة الأنفال، ١٠ من سورة الحج.

(٤) دراسات بلاغية للأستاذ الدكتور/ صباح عبيد دراز: ص ٢٣٥، ط. عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

والفرق كبير بين ما يشيعه لفظ (الصدق) فى الأسلوب من معان ينشرح لها الصدر، وتطمئن لها النفس، ونحو ذلك من المعانى التى يعبق بها الأسلوب حين تذكر فيه جملة (أنت تصدق)، بخلاف قولك (أنت لاتكذب)؛ فإن ذكر (الكذب) فيه- وإن كان مسبوقا بالنفى- ليس كالتصريح بلفظ (الصدق) ومافيه من معان.

وبعـــد:

فهذه إحدى عشرة مسألة بلاغية مما رآه الأستاذ الدكتور/ إبراهيم أنيس، حاولت- قدر الطاقة- أن أبين ما رأيته فيها من مخالفة سافرة لما اصطلح عليه علماء البلاغة، مع اعترافى له بالفضل والعلم، وتقديرى لجهوده فى خدمة اللغة، في مجال آخر غير البلاغة كان فيه الحائز علي قصب السبق، والعالم النحرير الذى تضرب إليه أكباد الإبل .

والله أسأل أن يرزقنا الهدى والسداد، فهو من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله علي سيدنا محمد النبى الأمى الحبيب وعلى آله وصحبه وسلم.

ثبت بأهم المراجع

١- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى. بتحقيق هـ. ريتر ط. مكتبة المتنبى.

٢- أصالة الإعراب ودلالته على المعانى فى اللغة العربية د/محمد حسن جبل- مطبعة التركى بطنطا- ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.

٣- التراث المجمعى فى خمسين عاما للأستاذ/ إبراهيم الترزى- نشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٤- تفسير روح المعانى للألوسى (العلامة أبى الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسى البغدادى المتوفى سنة ١٢٧٠هـ) ط. دار الفكر ١٤٠٨هـ/١٩٧٨م.

٥- الجدول فى إعراب القرآن وصرفه وبيانه، تصنيف /محمود صافى ط/دار الرشيد/ بيروت ط. ثالثة ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

٦- خزانة الأدب لعبد القاهر البغدادى. تحقيق/عبد السلام هارون- نشر مكتبة الخانجى ١٤٠٠هـ-١٩٨١م.

٧- خصائص التراكيب د/محمد محمد أبو موسى ط. ثالثة. نشر مكتبة وهبة.

٨- الخصائص لابن جنى- بتحقيق الأستاذ/ محمد على النجار- ط/ دار الهدى.

٩- دراسات بلاغية للأستاذ الدكتور/ صباح عبيد دراز ط. ١٤١١هـ-١٩٩١م.

١٠- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى- بتحقيق الأستاذ/محمود محمد شاكر- مطبعة المدنى- نشر مكتبة الخانجى.

١١- دلالات التراكيب: دراسة بلاغية- د/محمد محمد أبو موسى- ط. دار التضامن ط. ثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م نشر مكتبة وهبة.

١٢- ديوان أبى تمام بشرح الخطيب التبريزى- تحقيق/محمد عبده عزام ط. دار المعارف ط. رابعة.
١٣- ديوان ابن المعتز (الخليفة العباسى) بتحقيق د/محمد بديع شريف ط. دار المعارف.
١٤- ديوان حسان بن ثابت الأنصارى ط. دار ابن خلدون.
١٥- ديوان عمر بن أبى ربيعة بشرح الشيخ/ محمد محيى الدين عبد الحميد- مطبعة المدنى. ط. ثالثة ١٣٨٤هـ-١٩٦٥م.
١٦- شروح التلخيص للتفتازانى والمغربى والسبكى والدسوقى- ط. دار السرور.
١٧- صحيح البخارى (أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى) ط. دار نهر النيل.
١٨- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام يحيى ابن حمزة العلوى اليمنى- طبعة كاملة فى مجلد واحد- ط. دار الكتب العلمية. بيروت. ط. أولى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
١٩- عبد القاهر الجرجانى: د. أحمد أحمد بدوى- سلسلة أعلام العرب.
٢٠- الاعتراض فى القرآن الكريم دراسة بلاغية تحليلية: رسالة تخصص (ماجستير)- إعداد/ سلامة جمعة علي داود- مخطوطة بكلية اللغة العربية بالقاهرة.
٢١- مجلة مجمع اللغة العربية- العدد ٤٠ -ط. المطابع الأميرية.
٢٢- محاضر جلسات المجمع فى الدورة العشرين- ط. المطابع الأميرية.
٢٣- مقدمة تحقيق الأستاذ/ محمود محمد شاكر لكتاب أسرار البلاغة- مطبعة المدنى ط. أولى ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
٢٤- المطول على التلخيص لسعد الدين التفتازانى- مطبعة أحمد كامل ١٣٣٠هـ/١٩٧٢م- نشر المكتبة الأزهرية.

٢٥- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم- وضعة/محمد فؤاد عبد الباقى- مطابع الشعب ١٣٧٨هـ.

٢٦- من أسرار اللغة د/ إبراهيم أنيس- مكتبة الأنجلو المصرية- ط. رابعة ١٩٧٢م.

٢٧- الموازنة بين الشعراء فى دلائل الإعجاز- عرض وتعليق/ سلامة جمعة داود- بحث مخطوط لدى الباحث.

****